جامعة قاصدي مرباح ورقلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
شعبة: الفلسفة
تخصص: فلسفة عامة

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة ماستر أكاديمي
مذكرة بعنوان:

سؤال القيمة في الفكر الجزائري المعاصر
عبد الله شريط أنموذجًا

إعداد الطالب: أحمد قندوز

نوقشت بتاريخ: 2022/06/18
أمام اللجنة المكونة من:

الرقم	اسم ولقب الأستاذ	الرتبة العلمية	مؤسسة الإنتماء	الصفة
01	د.رياض طاهير	أستاذ محاضر أ	جامعة ورقلة	رئيساً
02	د. عمر برابح	أستاذ محاضر أ	جامعة ورقلة	مشرفًا
03	د. محمد الصديق بن غزالة	أستاذ محاضر ب	جامعة ورقلة	مناقشًا

الموسم الجامعي: 2022/2021

جامعة قاصدي مرباح ورقلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
شعبة: الفلسفة
تخصص: فلسفة عامة

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة ماستر أكاديمي
مذكرة بعنوان:

سؤال القيمة في الفكر الجزائري المعاصر
عبد الله شريط أنموذجًا

اعداد الطالب: أحمد قندوز

نوقشت بتاريخ: 2022/06/18
أمام اللجنة المكونة من:

الرقم	اسم ولقب الأستاذ	الرتبة العلمية	مؤسسة الإنتماء	الصفة
01	د.رياض طاهير	أستاذ محاضر أ	جامعة ورقلة	رئيساً
02	د. عمر برابح	أستاذ محاضر أ	جامعة ورقلة	مشرفًا
03	د. محمد الصديق بن غزالة	أستاذ محاضر ب	جامعة ورقلة	مناقشًا

الموسم الجامعي: 2022/2021

الإهـــــداء

أهدي هذا العمل إلى روح والديا رحمهما الله

إلى جميع أفراد أسرتي وبالأخص أبنائي أحمد أيوب، بسمة الأمل، محمـــد جود.

أحمد قندوز

شـكـر و عرفان

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأستاذي المشرف الدكتور برابح عمر الذي أشرف على هذا البحث منذ أن كان بحثا نظريا إلى اللحظة التي هو عليه، والذي كان لي بمثابة المرجع المعرفي و القيمي.

موفور الشكر و عظيم العرفان موصول أيضا:

- ✓ **إلى الدكتور طاهير رياض على ما بذله معنا من جهد وما قدمه لنا من نصح**
- ✓ **إلى كل أساتذة الفلسفة الأجلاء.**
- ✓ **إلى كل من ساهم من بعيد أو قريب في سبيل إنجاح هذا العمل.**

مقدمة

مقدمـــة

تهتم الفلسفة المعاصرة بمواضيع كثيرة ومتنوعة تستحق الدراسة الوافية والجادة وتطرح فوق بساط البحث مشاكل أساسية تتطلب من دارسيها مزيدا من البحث والاهتمام للعثور على حلول لها يمكن الاطمئنان إليها، فالكتب التي تؤلف والمجالات التي تظهر والمقالات التي تحرر والمؤتمرات التي تعقد والبحوث التي تعالج، والنظريات التي تنشر في عالم الفلسفة كثيرة جدا حيث يضيع الباحث وسط تنوعها وكثرتها والتي تدل على أن الفلسفة بضاعة رائجة في عصرنا الذي سادت فيه العلوم والتقنيات وكثرت الايديولوجيات، والذي انقسم العالم بخصوصها إلى معسكرات تضم مجموعة من الدول، منها دول متقدمة تعقدت فيها الحياة وظهرت مشاكل لها، ومنها دول نامية تحاول آن تلتحق بها، وهي دول العالم الثالث التي حصلت على استقلالها منذ أمد ليس ببعيد وصارت تعمل جاهدة حتى تحقق مستوى أفضل لشعوبها في جميع الميادين

هذا ولقد وقعت في العالم منذ بداية هذا القرن تغيرات وأحداث بدلت وجه الأرض وزعزعت أركان كل شي كان راسخا في العلم والفلسفة والاعتقاد والتفكير، وكان التمسك به أساسا للعمل والسلوك، فانقلبت الأمور انقلابا جعل الناس ولاسيما الفلاسفة أينما كانوا يتساءلون عن الغد المجهول انطلاقا من مكاسب الحاضر ومنجزاته الخارقة للعادة، فالإنسان يتساءل اليوم أكثر من قبل لعله يجد جوابا يريحه مما يشغل باله ويتساءل لأنه يتطلع ويغامر ولكنه لا يعرف لماذا .. ويرجو ويأمل ويخشى ويخاف لكنه لا يدري لماذا ... فهو في مفترق الطرق وهذه التساؤلات من بين الأسباب التي ساعدت فلسفة القيم على الرواج في الفكر المعاصر.

إن فلسفة القيم تحتل مكانة بارزة في الفكر المعاصر عموما وفي الفكر الجزائري على وجه الخصوص فهي فلسفة جد عصرية لأنها لم تظهر كفلسفة مستقلة لها منهج إلا في بداية هذا القرن أو قبله بقليل، حيث كان الفلاسفة في العصور السابقة يهتمون بالقيم ضمن ما يهتمون به، ولكن طرق معالجتهم لها ، وللمشاكل التي كانت تستوقفهم منها كان من نوع أخر لأنهم كانوا يجعلون القيمة تابعة للوجود ويعتبرون حل مشاكله حلا لمشاكلها، ففلسفة القيمة شاملة تهتم بالإنسان أينما كان، خاصة ما تعلق بالقضايا الأساسية

التي مازال يطرحها على نفسه ويحاول الإجابة عنها لعله يجد في ذلك نورا يهديه في مسيرة حياته فهي تهتم بالموضوعات التي تهتم بها الفلسفة عموما، لكن من وجهة نظر القيمية، بحيث تحاول أن تبرز المعنى العميق لهذا الوجود الذي لا يسرنا إلا حين يصبح جليا في عقولنا.

ونظرا لأهمية الأخلاق في حياة الأفراد والمجتمعات نحاول من خلال هذا البحث الإجابة على الإشكالية التالية:

هل نلتمس تفكيرا قيميا في الفكر الجزائري؟وما هي المسائل الأخلاقية التي اهتم بها؟ وكيف تساهم القيم في بناء الإنسان و تحقيق النهضة داخل المجتمع في نظر عبد الله شريط ؟

هذه الإشكالية تتفرع منها جملة من التساؤلات:

ما مفهوم الأخلاق ؟ هل هناك علاقة بين علم الأخلاق وفلسفة الأخلاق ؟ من هو عبد الله شريط؟ ما هي أهم إسهامات عبد الله شريط في مجال الأخلاق ؟

للإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدنا على المنهجية التالية:

قسمنا موضوع بحثنا إلى مقدمة وفصلين وخاتمة، المقدمة تم التطرق فيها إلى مدخل الموضوع وتحديد الإشكالية التي يتمحور حولها، وكذا المنهجية المعتمدة في الإجابة عنها وأيضا أهم الدوافع التي دفعتنا إلى اختيار البحث في هذا الموضوع، كما أشرنا إلى بعض الصعوبات التي اعترضتنا أثناء انجازنا له.

الفصل الأول وعنوناه بـ **"الأخلاق بحث في المفهوم والماهية"**، وقسمناه إلى ثلاث مباحث حيث تطرقنا في المبحث الأول إلى ماهية الأخلاق لغة واصطلاحا، مع تحديد العلاقة بين علم الأخلاق وفلسفة الأخلاق، أما المبحث الثاني تناولنا فيه الأخلاق بين النظري والتطبيق وضحنا فيه الأخلاق النظرية والعملية والعلاقة بينهما، أما بخصوص المبحث الثالث فخصص للقيم الأخلاقية في الفكر الجزائري، تطرقنا فيه إلى ثلاث نماذج (لوكيوس أبليوس- القديس أوغسطين - الأمير عبد القادر).

الفصل الثاني، والموسوم بـ **" القيم الأخلاقية في فكر عبد الله شريط"**، حاولنا من خلاله التطرق إلى بعض الدراسات التي قام بها عبد الله شريط في المجال الأخلاقي

وقسمناه إلى ثلاث مباحث، المبحث الأول خصصناه إلى عبد الله شريط وأعماله الفلسفية من خلال التركيز على عمله القيم في مجال الأخلاق من خلال أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه "الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون"، المبحث الثاني فتضمن القيم العملية والنظرية في فكر شريط، نحاول من خلاله بيان كيف ابرز عبد الله شريط القيم الأخلاقية العملية وكيف تمكن تجسيدها في أرض الواقع ومن ثم إبرازها من الجانب النظري (مستوى الأفكار) إلى مستوى العمل والتطبيق، أما المبحث الثالث كان حول معركة المفاهيم نوضح فيه بأن عبد الله شريط يرى أن قضيتنا هي قضية مفاهيم حيث يجب أن نضع كل مفهوم في إطاره المناسب وأن نعطي لكل مفهوم حقه وقيمته، وأن نتعلم كيف نستعمل كل مفهوم وإعادة النظر في مفاهيمنا وفي هذا المبحث تطرقنا إلى بعض المفاهيم التي حللها شريط وهي: المعركة بين الشهوة والقانون- الشرف- الحرية والمسؤولية- الثقافة.

من أجل بلوغ الهدف المرجو من تحليلينا للإشكالية موضوع البحث الذي سبق الإشارة إليها في بداية هذا التقديم قمنا بالاعتماد على المنهج التحليلي الذي يسمح لنا بمعرفة حقيقة النصوص إضافة إلى المنهج التاريخي الذي يوضح لنا تطور القيم الأخلاقية في مراحلها التاريخية المختلفة في الفكر الجزائري.

أما عن الأهداف فإننا نسعى من وراء هذا البحث الذي يدور موضوعه حول الفكر الأخلاقي لدى المفكرين الجزائريين إلى استخلاص نتائج تكون بمثابة رهان جديد يفتح أفاقا غير معهودة للبحث والمسائلة في مجال الفكر الأخلاقي الجزائري، وبيان قدرة هذا الفكر على الإسهام الجاد في تطوير نظرة الإنسان الأخلاقية ومن ثم حماية المصير البشري الذي أصبح على مقربة من الهلاك إذا لم ينتبه إلى البعد الأخلاقي في منظومتنا المعرفية العامة.

إن اختيارنا البحث في هذا الموضوع الذي عنوناه **"سؤال القيمة في الفكر الجزائري المعاصر، عبد الله شريط نموذجا"** كان انطلاقا من دوافع معينة نراها أساس البحث يمكن تلخيصها فيما يلي:

فقر المكتبة العربية بصفة عامة والجزائرية بصفة خاصة من بحوث في مجال فلسفة الأخلاق الجزائرية وعلى الخصوص المعاصرة منها. حيث رغم الكثير من

الدراسات في هذا المجال لم تخصص من الفكر الجزائري ما يستحق من بحث ودراسة إلا في الحدود الضيقة أغلبها لم يتجاوز عتبة الإشارات والتلميحات هذا من جهة ومن جهة أخرى فان تشكيك بعض المفكرين و الباحثين سواء من الغرب أو العرب المشارقة في وجود فكر فلسفي أخلاقي جزائري معاصر، دفعنا إلى البحث في حقيقة هذه الدراسات الأخلاقية التي ظهرت في الفكر الجزائري ومدى مساهمتها في بناء الإنسان وتنميته.

في الأخير نشير إلى الصعوبات التي واجهتنا عبر قراءتنا الأولية لسؤال الأخلاق لدى بعض المفكرين الجزائريين والمتمثلة في نقص وعدم وجود دراسات كافية ومتنوعة في هذا المجال بالإضافة إلى صعوبة انتقاء شخصية معينة لتناول فكرها في هذا الميدان، لأن في مبحث الأخلاق تتداخل فيه أسئلة الخير وهي خاصة بالأخلاق وأسئلة الجمال وخاصة بعلم الجمال لأن ما هو خير جميل من جهة وما هو جميل خير من جهة أخرى.

الفصل الأول: الأخلاق بحث في المفهوم والماهية

المبحث الأول: ماهية الأخلاق

المبحث الثاني: الأخلاق بين النظري والتطبيق

المبحث الثالث: القيم الأخلاقية في الفكر الجزائري

المبحث الأول: ماهية الأخلاق

إن التعرف على أي نوع من أنواع المعرفة أو العلوم يجب أن يبدأ بتقديم تعريف معين نحدد منه المقصود بهذا العلم أو تلك المعرفة وهذا ما نبدأ به قبل محاولة فهم الأخلاق في الفكر الجزائري المعاصر

أولا- الأخلاق لغة واصطلاحا:

يعد الفيلسوف اليوناني سقراط (469-399 ق م) من بين الذين ساهموا في تأسيس علم الأخلاق و إرساء قواعده الأولى ويؤكد أن الفضيلة علم والرذيلة جهل، فالفضيلة مطلب إنساني وجب اكتسابها، والأخلاق عنده لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مبنية على العلم، ويعتبر الأخلاق من بين العلوم المتداخلة مع الفلسفة لآن الأخلاق هي إيقاظ الإحساس بالقيمة الإنسانية العليا للوصول إلى المثل العليا لتسمو على مستوى الطبيعة من خلال الوعي الأخلاقي.[1]

1-الأخلاق لغة:

مفهوم الأخلاق في لسان العرب: في التنزيل: "وإنك لعلى خلق عظيم"[2]، والجمع أخلاق، والخُلْقُ: السجية، يقال: صادق المؤمن، وخالق الفاجر، وفي الحديث ليس شيئا في الميزان أثقل من حسن الخُلق، الخلق بضم اللام وسكونها، وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقة أنه صورة الإنسان الباطني،نفس أوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولها أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلق بأوصاف الصورة الظاهرة.[3]

الأخلاق في اللغة:جمع خلق، وهو العادة والسَجية، والطَبع والمروءة والدين، وعند القدماء ملكة تصدر الأفعال عن النفس، من غير تكلف وروية، فغير الراسخ من صفات النفس لا يكون خلقا، كغضب الحكيم، وقد يطلق لفظ الأخلاق عن جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، فنقول فلان كريم الأخلاق أو سيء الأخلاق[4]،وفي

1- مصطفى عبده- فلسفة الأخلاق- مكتبة مدبولي القاهرة- 1999- ط2- ص09.
2- قرآن كريم،سورة القلم، الآية 04.
3- ابن منظور، لسان العرب، باب الخاء، ص1244.
4- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص40.

اللغة الفرنسية: Morale. Ethique، والانجليزية: Moral.Ethiques، وفي اللاتينية:Moralis.[1]

وقد اختلفت آراء الفلاسفة في تحديد مفهومي الأخلاق«Ethique»والأخلاق«Morale»

والحديث هنا يحيل إلى الإشكال الناجم عن الخلط في تحديد فلاسفة الغرب المعاصرين لهذين المفهومين ،حينما أرادوا التمييز بينهما، وفي هذا السياق يقول طه عبد الرحمان:"وقد بلغ اختلاف الفلاسفة - أو قل اختلاط أحكامهم - الغاية عندما تعدى موضوع الأخلاق الذي ينظرون فيه إلى الاسم الذي يطلقون عليه، فعمت فيه فوضى غير مسبوقة، فمعلوم أن اليونان استعملوا للدلالة عن هذا الموضوع لفظ "Ethique" أي خُلُقي، وهو الذي نقله اللاتينيون إلى لغتهم بلفظ"Morale".

وقد استعمل المتقدمون من فلاسفة الغرب اللفظين بمعنى واحد باعتبارهما مترادفين، وإن كنا نجد بينهم من يؤْثر استعمال هذا اللفظ أو ذاك، أما المعاصرون منهم أبوا إلا أن يفرقوا بينهما،ولكي يبين ما في المفهومين من تداخل يمضي إلى تفكيكهما يقول : الأوامر والنواهي التي تدور عليها "Morale"هي بالذات الأصل في أحكام التحسين والتقبيح التي تدور عليها "Ethique" بحيث لا يختلفان إلا كما يختلف الشيء عن العلم بهذا الشيء بمعنى أن "Morale"إنما هي الموضوع ذاته الذي تمت "Ethique"بالنظر فيه وحينئذ لا غرور أن ينتهي واضع هذه التفرقة على الإقرار بوجود تداخل بين مسائل المفهومين المذكورين[2].

2- التعريف الاصطلاحي:

الأخلاق مجموعة من القواعد والنواظم السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس في حقبة ما وموضوع الأخلاق هو فرض القواعد التي ينبغي أن يحتذي بها الإنسان في سلوك هو يسمى علم الأخلاق بعلم السلوك والتهذيب أو فلسفة الأخلاق أو الحكمة العملية أو الحكمة الخلقية وعلم الأخلاق هو علم تحليل السلوك الإنساني من حيث بواعثه وأهدافه مع دراسة الإرادة الإنسانية والمسؤولية الخلقية وركنيها: العقل والاختيار[3].

ويدرس ما علينا أن نعمله ويهتم بتحديد ماهية الخير وماهية الشر ويعرف الفضيلة كما يعرف الرذيلة فعلم الأخلاق هو علم التعريف بالفضائل وكيفية التحلي بها

1- عمار طالبي، مدخل إلى عالم الفلسفة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص62.
2- طه عبد الرحمان: سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، المغرب،ط1، 2001، ص15.
3- ماهر عبد القادر محمود، دراسات في المذاهب الأخلاقية، أورينتال، الإسكندرية، 2009، ص ص26، 25.

والتعرف على الرذائل والسلبيات الخلقية وكيفية التخلي عنها، فهو علم يبحث في الصحة السلوكية للإنسان وواضح أن السلوك الإنساني الذي تدرسه الأخلاق هو الفعل الصادر عن الفرد بالاختيار الحر مع الوعي به.

كما يعرف **لالاند**[1] الأخلاق على أنها: كل ما يتعلق إما بالآداب وإما بالقواعد السلوكية المسلم بها في عصر ما في مجتمع معين، تكون واقعة اجتماعية سوية بالنسبة إلى نمط اجتماعي معين.

بهذا المعنى تطلق الأخلاق على الآداب والأحكام على الآداب التي يمكن أن تكون موضوع مشاهدة وملاحظة.

والأخلاق عند **علماء الاجتماع** هي: ذلك العلم الذي يبحث في الأحكام القيمية التي تنصب على الأفعال الإنسانية من حيث أنها خير أو شر والسلوك الخلقي هو السلوك الذي اصطلح عليه المجتمع وأقره ويتكون هذا السلوك من مجموعة من القواعد التي تبين للأفراد كيف يجب أن يتصرفوا في الحالات والمواقف التي تعرض لهم من دون أن يخالفوا في ذلك ضمائرهم أو العرف السائد في مجتمعهم[2].

ولمعرفة ما يجب على الإنسان فعله لبلوغ السعادة تكلم الفلاسفة على الوجدان والشعور والخير والعدل والواجب وبتوضيح المفاهيم الخلقية على الأسس المستمدة من مبادئهم الفلسفية وبهذا المعنى أصبح مفهوم الأخلاق يطلق على مجموع من المعاني أهمها:

الأخلاق النسبية: وهي مجموعة قواعد السلوك المقررة في زمان معين لمجتمع معين فنقول: أخلاق العرب وأخلاق الفرس وأخلاق الروم فلكل شعب أخلاقه المتفقة مع شروط وجوده.

الأخلاق المطلقة: وهي مجموع قواعد السلوك الثابتة التي تصلح لكل زمان ومكان ويسمى العلم الذي يبحث في هذه الأخلاق بفلسفة الأخلاق وهي الحكمة العملية التي تفسر معنى الخير والشر وتنقسم إلى قسمين: أحدهما عام مشتمل على مبادئ السلوك الكلية والآخر خاص مشتمل على تطبيق هذه المبادئ وجماع ذلك كله تحديد ما يجب أن يكون لا وصف ما هو كائن[3].

1-أند لالاند–الموسوعة الفلسفية– ترجمة أحمد خليل ج1– مادة الخلق– دار الكتاب اللبنانية بيروت 1976– ص30

2– أحمد زاكي بدوي– معجم مصطلح العلوم الاجتماعية– مكتبة لبنان–1986– ص139.

3– جميل صليبا، المعجم الفلسفي– ج2– المرجع سابق– ص50.

الأخلاق النهائية والأخلاق المؤقتة: لقد فرق ديكارت بين الأخلاق النهائية المبنية على المبادئ الفلسفية والأخلاق المؤقتة المشتملة على بعض القواعد العملية التي تصلح للحياة في مجتمع معين واعتبر أن البحث في الأخلاق يستلزم إحاطة تامة بسائر أنواع المعرفة[1].

ثانيا- علم الأخلاق و فلسفة الأخلاق:

تعتبر فلسفة الأخلاق من بين الفلسفات الهامة، والتي جذبت إليها عقول الفلاسفة قديما وحديثا ، لما تكتسيه من أهمية بالغة في هيكلة الفرد و المجتمع، وتشكل الأخلاق دورا حاسما في صلاحها، وتبعث على تقدم الأمم والشعوب، إن كانت قائمة على معايير سليمة، وتكون عاملا رئيسيا في فساد الفرد و المجتمع وتخلف الأمم و الشعوب إذا كانت قائمة على معايير فاسدة ، أي كانت أخلاق الشر، ويعتبر اليونانيون القدامى من بين الذين ساهموا في تأسيس قواعد علم الأخلاق على مبادئ فلسفية، ولا يكاد الحديث عن علم الأخلاق ينفصل عن فلسفة الأخلاق لما بينهما من اتصال وثيق، وهذا ما سنحاول تبيينه حتى نقف على مفهوم وحقيقة علم الأخلاق وفلسفة الأخلاق والعلاقة بينهما على حد سواء.

1-تعريف علم الأخلاق: يتكون مصطلح علم الأخلاق من شقين: علم بمعنى مجموعة من القوانين المستنبطة من منهج علمي والأخلاق " Morales"، جمع لكلمة خلق التي تعني العادة والسجية والطبع والمروءة والدين، وعند القدماء هي ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس من غير روية وتكليف، وقد يطبق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة وهو متقدم على علم الأخلاق وهو تعريف يتطابق مع تعريف ابن منظور.[2]

وعرفه لالاند (Lalande): بقوله علم الأخلاق:" **علم موضوعه الحكم التقويمي القائم على التميز بين الخير والشر**"[3]، أي العلم الذي يتخذ الأحكام التقويمية على الأعمال الإنسانية بأنها حسنة أو قبيحة موضوعا مباشرا له.

أما جميل صليبا فيعرف علم الأخلاق**" بعلم السلوك، أو تهذيب الأخلاق"**[4]، والمقصود به معرفة الفضائل لتزكية النفس ومعرفة الرذائل لتتنزه عنها النفس.

1- رنية ديكارت، مقال عن المنهج، تر: محمود محمد الخضري- م: محمد مصطفى حلمي- الهيئة المصرية العامة للمكاتب- ط3- 1985- ص147.

2- جميل صليبا- المعجم الفلسفي- ج1- مادة الخلق – دار الكتاب اللبنانية- بيروت- 1976- ص 49.

3- اندرية لالاند- الموسوعة الفلسفية- تر: أحمد خليل-مج1-ط2- المرجع السابق- ص370.

4- جميل صليبا، المعجم الفلسفي-المرجع السابق- ص50.

وتعددت وتطورت تعريفات علم الأخلاق عبر تاريخ الفكر الفلسفي فهناك من يعرف الأخلاق بأنها" علم الخير والشر" على أساس تحديد معنى كل من الخير والشر والتفرق بينهما فهي القواعد التي ينبغي أن يسير عليها الإنسان لبلوغ كمال إنسانيته في ضوء مثل أعلى يصبو إليه ومعنى هذا أن علم الأخلاق علم معياري لا يبحث في حياة الإنسان الواقعية أو ما هو كائن بالفعل، بل هو علم يبحث فيما ينبغي أن يكون.

ومن التعريفات العربية نجد تعريف أحمد أمين لعلم الأخلاق يقول فيه:" **هو علم يوضح معنى الخير والشر، ويبين ما تعني أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغي**"[1].

إن علم الأخلاق ينظر في جملة الضوابط التي تساعد الناس على التعامل فيما بينهم بشكل أخلاقي بعيدا عن كل ما هو قبيح، فهو علم يبحث في أعمال الناس فيحكم عليها بالخير أو الشر.

وهناك تعريف آخر لعلم الأخلاق بأنه علم معياري يهتم بالعلاقات الإنسانية أو هو" **العلم المعياري لسلوك الكائنات البشرية التي تحيا في المجتمعات... وأنه العلم الذي يحكم على مثل هذا السلوك بالصواب أو الخطأ بالصلاح والفساد**"[2].

إن علم الأخلاق علم يهتم بدراسة العلاقات الإنسانية وتنظيمها من خلال الحكم على الفعل الأخلاقي فيما إذا كان حميد ومقبول في المجتمع أو العكس من ذلك، وبهذا يحاول هذا العلم دراسة الأخلاق الإنسانية وجل السلوكيات دراسة علمية فعلم الأخلاق هو علم السلوك بل علم المثل العليا، وهو يبحث أيضا في عادات الناس واعتيادهم في سجاياهم وأخلاقهم وفي المبادئ التي اعتادوا العمل عليها والأسباب التي تجعل هذه المبادئ حقا أو باطلا خيرا أو شرا، وإنه علم السلوك مطلقا يبحث عن الغايات القصوى التي تتجه إليها كل حياتنا أي الخير الأسمى"[3].

وهكذا يمكن القول أن الغاية من علم الأخلاق هي الأفعال والسلوكات التي صدت عن الإنسان عن عمد و اختيار و كذلك الأعمال التي صدرت لا عن وعي إرادة و لكن يمكن تجنب وقوعها عند ما كان مريدا و مختارا[4]، وعلم الأخلاق يسعى من خلال نتائجه

1- أحمد أمين، كتاب الاخلاق-ط2- دار الكتاب المصرية- مصر- 1921- ص02.

2- وليام ليلى، مقدمة في علم الأخلاق، تر: علي عبد المعطي محمد- دار المعارف- الإسكندرية- 2000- ص26.

3- ي.دني، أصول الأخلاق،تر: إبراهيم رمزي- كلمات عربية للترجمة والنشر- القاهرة- ص ص9.8.

4- alain: elements de philosophie- collection idees- edition gallimard- france 1941- p22.

أن يرتقي بالحياة البشرية و ينظمها من حيث الخبرة معاشه فهو يهتم بكيفية تصحيح و تعديل و تبين ما هو جميل من ما هو قبيح .

و يمكن القول أيضا أن علم الأخلاق هو علم الواجب، أي علم ما يجب أن يكون في سلوك الإنساني، و يهدف إلى وضع القواعد و المعايير التي يمكن قياس السلوك الإنساني بناء عليها و تحديد الصواب و الخطأ و الخير فيه "**فعلم الأخلاق يعني بالخير حين يستخدم غاية في ذاته ووظيفته أن يضع المثل الأعلى للسلوك الإنساني لأنه يضع القواعد التي تحدد استقامة الأفعال الإنسانية ويدرس الخير الأقصى باعتباره غاية الإنسان التي لا تكون وسيلة لغاية** "[1]

وعلى ضوء ما سبق نستنتج بأن علم الأخلاق يعني الدراسة العلمية للقيم سواء إيجابية كانت أو وسلبية و للفضائل السامية في ظل مبادئ أخلاقية ذات صفة عامة ومطلقة تحكم كل أفعال الناس بغض النظر عن الزمان و المكان ،بهدف ترشيد وتعليم الناس فن الحياة والتأثير في إرادتهم لحقيق المثل الأعلى للحياة،إنه أحسن مشجع للإرادة لعمل الخير، أي أن غرض علم الأخلاق هو توضيح السبيل أو الطريق الصحيح للإنسان ليعيش حياة فاضلة وليحقق السعادة لنفسه وللأخرين .

2-تعريف فلسفة الأخلاق (philosophie de l'éthique):

إن الاستغراق في الجانب التطبيقي للأخلاق لا يجب أن يبعدنا عن الاهتمام بالجانب النظري أو المعرفي له، ويتمثل هذا الجانب الأخير في النظر في طبيعة المبادئ الأخلاق،واستخلاص القوانين الأخلاقية وتجريدها من الجزئيات الواقعية .

فقد وجدت فلسفة الأخلاق لتكون أكثر مثالية عن ما هو واقعي فهي تسعى إلى نقل الأخلاق إلى درجة عالية من المثالية الأخلاقية، ذلك أن الفلسفة الأخلاقية تسعى إلى تحقيق ما ينبغي أن يكون من خلال وضع مجموعة من القواعد الأخلاقية العالية والسامية، فهي تسعى إلى تحقيق المثل الأعلى لكل فلسفة معينة، إنها تبحث في أساس القواعد التي ينبغي أن يسير عليها السلوك الإنساني لبلوغ كمال إنسانيته في ضوء المثل الأعلى الذي يصبو إليه .

1- مصطفى عبده، فلسفة الأخلاق ،ط2 – مكتبة مدبولي القاهرة 1999 – ص 23,22

ولا يمكن الحديث عن علم الأخلاق بعيدا عن فلسفة الأخلاق،فالأخلاق علم فلسفي فهي ليست مجموعة من النتائج وليست تأويلا لها، ولا يمكن مقارنته على الإطلاق بالعلوم القانونية ذلك أنها تتصل على الإطلاق بالروح أو الضمير.[1]

ومفاد هذا أن فلسفة الأخلاق لا تهتم بشكل كبير بالأفعال السطحية من خير وشر بل تهتم بمضمون هذه الأفعال الأخلاقية من حيت أسبابها،غايتها وتداعياتها في الحاضر والمستقبل، لهذا ففلسفة الأخلاق تهتم بما سوف يكون لا بما هو كائن، لأن فإذا كان علم الأخلاق يدرس الفعل الأخلاقي دون التطرف إلى جميع أسبابه فإن اعتمدت فلسفة الأخلاق تعمل على التحليل والتفسير والنقد في معالجة النظرية الأخلاقية.

إن فلسفة الأخلاق تهتم بدراسة الفعل الأخلاقي بكل جوانبه عكس علم الأخلاق الذي ينطلق لمعالجتها معالجة جزئية، بدلا من معالجته بشكل كلي وشامل.

فالفيلسوف المنظر للأخلاق لا يكتفي بوصف القيم، وإنما يبحث عما إذا كانت قيما بالفعل جديرة بالتقدير.فهو يهتم بالأساس في العقل أو المجتمع أو عالم المثل أو الوحي.

وتعمل الفلسفة الأخلاقية على غرس الوعي في نفس كل فرد حتى يكون فقيها بنفسه ومدركا لما حوله، ويمتع بقوة نافدة لتذوق قيم الحياة، إنها تعمل على إيقاظ الإحساس بالقيم وإدراك المعاني،لأن رسالتها الأساسية والجوهرية تكمن في تحويل العالم من المرتبة الطبيعية إلى المرتبة الإنسانية الحقيقية .

المبحث الثاني:الأخلاق بين النظري والتطبيق

يتفق معظم فلاسفة الأخلاق على أن الأخلاق هي مجموعة المبادئ المعيارية والقواعد السلوكية التي ينبغي أن يسير بمقتضاها السلوك الإنساني حتى يكون خير أو شر غير أنهم لم يتفقوا على موضوع الأخلاق ومجاله بالضبط فنشأت المشكلة التالية: **هل مجال الأخلاق التنظير أم الممارسة ؟**

تظهر الأخلاق تارة في صبغة كلية تقع في لوحة التصورات العامة وتسمى بالأخلاق العملية أو التطبيقية.

1- بيتربيرغر وتوماس لوكمان- البنية الاجتماعية للواقع، تر: أبو بكر احمد- دار الأهلية للنشر والتوزيع- عمان الأردن- 2000- ص24.

وميز الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت (descartes) في كتابه (مقالة الطريقة) بين الأخلاق النظرية المبنية على المبادئ الفلسفية وبين الأخلاق المؤقتة المشتملة على بعض القواعد العملية التي تصلح للحياة في مجتمع معين.

وفي نفس السياق نجد الفيلسوف الفرنسي ليفي برويل (levi.b) (1939-1857م) في كتابه (الأخلاق وعلم العادات الخلقية) دعا إلى ضرورة التميز من الأخلاق النظرية والأخلاق العملية حيث يرى أن التقدم الأخلاقي لا يدل على تقدم النظريات الأخلاقية بل يدل على مطابقة السلوك العملي لقواعد الأخلاق في الحياة الإنسانية الأفضل.[1]

وسنفصل في هذين النوعين من الأخلاق العملية والنظرية، لأن هذا الأمر سيكون ركيزة أساسية ومشكلة مركزية في بحثنا هذا.

أولا-تعريف الأخلاق العملية (philosophie pratique):

تعرف الأخلاق العملية على أنها مجموعة العادات الخلقية المنتشرة في المجتمع الواحد، إنها مجموعة من القواعد والقوانين الأخلاقية العملية المقبولة لدى مجتمع ما في مكان وزمان معينين، ذلك أنها أخلاق جمعية تكتسي طابع الإلزام، ومصدرها الضمير الأخلاقي الجمعي فهي من وضع المجتمع في غالب الأحيان، وتسمى بالأخلاق الاعتقادية، وهي ثابتة نسبيا وقابلة للتبدل والتطور من مستوى إلى آخر، اختلف الباحثون في نظرتهم إلى علم الأخلاق ومدى اتصالها بالحياة العملية.

فقيل أن الأخلاق علم عملي يهدف إلى تحقيق غاية في حياتنا أو تحويل المفهوم من مجرد تحليل عقلي إلى تركيبة واقعية.[2]

والواقع أن الفلسفة الأخلاقية هي منذ البداية فلسفة عملية تهدف إلى الإجابة عن السؤال: **ما الذي ينبغي علي أن أقوم به في الواقع العملي ؟** أي أننا هنا نكون إزاء شيء غير متحقق في والواقع، وليس له وجود سابق بل يكتسب وجوده من خلال عملنا الذي نقوم به، ومن ثم يتحقق الطابع العملي من خلال توجيه نشاطنا العملي نحوه.

وعلم الأخلاق العملية يبحث في أنواع الملكات الفاضلة التي ينبغي على الإنسان أن يتحلى بها ويمارسها في حياته العملية اليومية مثل الصدق، الإخلاص الأمانة والشجاعة والعدل والرحمة ونحو ذلك، فموضوعها الواجبات المختلفة "المطلوبة" من

1- جميل صليبا- المعجم الفلسفي ،ج1، المرجع السابق، ص50.

2- kant:critique de la raison pure- trad- j.barni- puf- paris- 1968- p44.

الإنسان مثل واجب الإنسان نحو نفسه وأسرته ووطنه وواجبه نحو الكائنات الأخرى وكذلك يبحث في الحقوق كحق الحياة والملكية.[1]

ومن ثمة فان دور الأخلاق العملية يتمثل في دراسة: **"الواجبات المختلفة مثل واجب الإنسان نحو نفسه نحو ربه وعائلته ونحو الوطن والإنسانية بوجه عام، أي أن الأخلاق العملية تعرض لتطبيق الأخلاق النظرية على ظروف الحياة المختلفة الاجتماعية والسياسية وغيرها".**

فالأخلاق العملية تشمل مختلف نواحي الحياة، وهذا ما أكده ليفي برويل الذي يؤمن بفعالية الأخلاق العملية أكثر من الأخلاق النظرية، إذ دعا إلى ضرورة إسقاط الأخلاق النظرية من قاموس علم الأخلاق فالأولوية حسبه للأخلاق العملية ذلك أن الأخلاق النظرية لا تتصل بصورة مباشرة بحياة الإنسان، فهي مبالغة في المثالية والدليل على هذا أن الإنسان يطلب الأخلاق العملية أكثر من الأخلاق النظرية، إنه يدعو إلى ضرورة تحويل الأخلاق النظرية إلى أخلاق عملية قابلة للدراسة العملية، بمعنى تتحول إلى دراسة تقريرية ووصفية وبين أنه يجب إحالة الأخلاق إلى دراسة العلمية الوصفية كما هو الحال في كل علم لتحصل المعرفة التي تمكننا من التحكم في الظواهر التي اكتشفت قوانينها وبهذا تضمحل وتختفي الأخلاق النظرية.

وتبقى الأخلاق العملية التي تخضع لبحث علمي نظري يمهد لتطبيقات تمكننا من تعديل سلوكياتنا وتهذيبها، لذا فهو يدعونا إلى ضرورة إخضاع الظواهر الأخلاقية إلى الدراسة التقريرية الوصفية، أن الأخلاق العملية تعني دراسة موضوعات الضمير والخير والشر والحرية والإرادة والفضيلة والحق والواجب والنية والقصد والجبر والاختيار والمعايير والقيم والبواعث والغايات والمثل العليا الممارسة واقعيا لا الموجودة على مستوى التصورات العقلية.[2]

ولكن أليست الأخلاق العملية تقييد للأخلاق الإنسانية؟ فالأخلاق ذات طابع فردي كذلك وهذا لا يمكن إنكاره نعتقد أننا لا نستطيع إجبار أحد على أخلاق مجتمع معين، فله الحرية في أن يختار أخلاق غير أخلاق مجتمعة، ذلك أن الأخلاق العملية تكتسي طابع الإكراه والإلزام كما أنها ليست ثابتة، لأنها متغيرة من وضع إلى وضع ومن مجتمع إلى مجتمع آخر، كما أنه لا يمكن أن تقوم أخلاق عملية بدون أخلاق نظرية، لأن أفعال الناس يجب أن تخضع للنقد والتحليل والتفسير، كما أنها تمس القداسة الخلقية للإنسان، ومن ثم

1- موزة أحمد راشد العبار، البعد الأخلاقي للفكر السياسي عند الفارابي والماوردي وابن تيمية- رسالة ماجستر- ج1- جامعة الإسكندرية-2000- ص 26.

2- محـــمد مهران رشوان- تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، دار قباء، القاهرة،1998- ص ص 23-27

إلغاء لفكرة الإبداع الأخلاقي، وهنا نطرح التساؤل: **هل يمكننا الاستغناء عن الأخلاق النظرية ؟**

ثانيا- تعريف الأخلاق النظرية (philosophie théorique):

إن علم الأخلاق النظرية أو ما يطلق عليه البعض أيضا فلسفة الأخلاق يبحث في طبيعة الحياة الأخلاقية كما لو كان علم الأخلاق يمثل صورة من صور البحث عن الحقيقة، ويدفع إليه دافع عقلي هو الرغبة في "المعرفة"، فهو يهدف إلى التعرف على الصواب والخطأ في السلوك الإنساني ومعنى هذا أن علم الأخلاق علم نظري بحت، فهو حين يبحث فيما يبحث فيه لا يكون بصدد تطبيق أو عمل، بل بصدد بحث ونظر، أي أن الأخلاق النظرية بهذا المعنى تبحث في المبادئ الكلية والطرق والسبل التي تتبع في التعرف على المثل الأعلى في الأخلاق التي تكون هدفا للفرد والجماعة.

إن الأخلاق النظرية تبحث في المقاييس التي تقاس بها الإعمال لبيان خيرها وشرها، إنها تدرس ما سوف يكون وليس ما هو كائن، على عكس الأخلاق العملية، حيث نجد أن غايتها القصوى هي توقع أخلاق أرقى مما هي عليه في الواقع ذلك لأنها أخلاق متعالية عن كل ما هو حسي مثل ما قدمه الفيلسوف الألماني كانط، من خلال فلسفة الواجب الأخلاقي.

وقد دافع عن هذا الموقف العديد من الفلاسفة ومن بينهم شوبنهور (schopenhauer) (1788-1860م) الذي أعلن أن الأخلاق مبحث فلسفي نظري لا يتسم مطلقا بأي طابع عملي أو تطبيقي مثله في ذلك مثل علم المنطق وما بعد الطبيعة فليس في وسع فلسفة الأخلاق أن تفرض علينا أي شيء إن لم نقل بأنها تعجز عن التعرض لدراسة أوامر السلوك، ومعنى هذا أن الأخلاق النظرية حسب شوبنهور تحدد ما ينبغي أن تكون عليه أفعال الناس، أي أنها تبحث في المثل العليا، وهدفها ليس تعليم الناس كيف يسلكون سلوك حسن، إنما تبحث في ماهية الأخلاق بمعنى الأساس الفلسفي للأخلاق لأنها ترتبط بالفلسفة ومجالها هو الفلسفة، لأنها تقوم على التنظير، وتمارس عملية التحليل والتفسير والتأديب والشرح والنقد للقواعد والقيم الأخلاقية وهذه المهام لا يقوم به إلا الفيلسوف، وما على العلماء إلا التطبيق.

كما تبحث في كليات الفعل الأخلاقي لا في جزئياته كما في الأخلاق العملية، وهكذا تجمع الأخلاق بين النظر والعمل أو هي علم وفن في آن واحد، لأنها تنطوي على

الجانب النظري والجانب العملي ومن ثم لا تكون العلاقة بين الجانبين علاقة تعارض وتنافي، بل تصبح علاقة تداخل وتفاعل.[1]

ومن هنا يمكن القول أن الأخلاق النظرية هي دراسة معيارية من خلالها نسعى إلى بلوغ الكمال المطلق من خلال نظريات فلاسفة الأخلاق.

بناء على ما سبق يمكن القول أن الحكمة الأخلاقية هي نقطة تلاقي النظر والعمل كما لا يمكن أن تكون الفلسفة الأخلاقية مجرد نظر عقلي يستهدف تحديد ماهية الخير والشر، بل لا بد لها من تحديد القواعد العملية، كما تأخذ على عاتقها مهمة العمل على إيقاف الإحساس بالقيم لدى الناس، والعمل على تجسيد هذه القيم واعتبارها محركات للسلوك الإنساني والمشاركة في تربية الإنسان بوجه عام.

فإذا كانت الأخلاق العملية تتمثل في القواعد التي تقوم عليها الأعمال الإنسانية لتكون صالحة فان الأخلاق النظرية أو فلسفة الأخلاق تهتم بدورها في تبيين الأسس أو المبادئ التي تقوم عليها هذه القواعد، ورسم المثال الأعلى للسلوك الإنساني كما يجب أن يكون.

فنحن لا ننكر عدم وجود علاقة بين الأخلاق النظرية والعملية، ولابد أن نجمع بين الخطين النظري والعملي معا ولا نفرق بينهما، فالعلاقة بين علم الأخلاق النظرية وعلم الأخلاق العملية كعلاقة أصول الفقه بعلم الفقه.

المبحث الثالث: القيم الأخلاقية في الفكر الجزائري

أولا-القيم الأخلاقية عند لوكيوس أبوليوس:

ولد سنة حوالي125 ق م في مداوروش، كان لا يكف عن ترديد العبارة التالية: (لم يتملكني في يوم من الأيام أي نوع من الشعور بالخجل من وطني، أبي نوميدي وأمي جدالية) ترك له والده ثروة طائلة أنفقها في التنقل بين الجامعات ومكتبات المدن وتطلع على ثقافة عصره، بين قرطاجة وأثينا والإسكندرية وروما ومداوروش ويقول عنه الأستاذ جان لويس بوري الفرنسي: مترجم رواية الحمار الذهبي، كان يملك حبا عارما للتعرف على الأقطار شغفا غريبا لاكتساب المعارف[2]، كان بليغا درس البلاغة وفنونها في كتابه (الأزاهير)، أما كتابه (دفاع) فقد ضمنه براعة الأفكار الفلسفية جعلت النقاد يصفونه

1- جون سيرل- العقل واللغة والمجتمع- تر: سعيد الغانمي- منشورات الاختلاف- دار العربية للعلوم- لبنان 2006- ص67.

2 - لوكيوس أبوليوس- الحمار الذهبي- ترجمة أبو العيد دودو- دار منشورات الاختلاف عمان ط3-2004 ص 06.

بالفيلسوف الأفلاطوني، وفي كتابه هذا عبر عن حبه وإعجابه بالزعيم النوميدي سيفاكس الذي مات شهيدا دفاعا عن قرطاج كان يعبر بأسلوب غير مباشر عن إعجابه بولاء هذا الزعيم الامازيغي البربري لقرطاج[1].

ومن أهم كتبه كتاب **(الحمار الذهبي)** وقصته هي أول رواية في التاريخ الأدبي، أن إنسانا اسمه لوسيوس يتحول إلى حمار ولا يتمكن من العودة إلى أصله الإنساني إلا إذا أكل الورد وبعد إثني عشر فصلا شعريا من هذه القصة قضاها لوسيوس متنقلا من لص إلى لص، من بستاني إلى جندي إلى حلواني إلى أخره من عناصر المدينة الرومانية بنوميديا، تغيثه أخيرا إيزيس آلهة قدماء المصريين وتعيده إلى هيئته البشرية، ونجد أيضا كتاب (فلوريدا) وهو عبارة عن مجموعة من خطبه في الريطوريقا البيانية، وكتاب (ابوليكا) في الريطوريقا القضائية وأخيرا كتاب (التحولات) الذي يعد عمله الأساسي، الذي احتوى على أول قصة مكتوبة على شكل نثر في تاريخ الأدب الإنساني ومن مؤلفاته الفلسفية: كتاب حول (اله سقراط) وكتاب حول (مذهب أفلاطون) والجزء الثالث منه خصه للمنطق فقط ولهذا وضع هذا الفيلسوف ولأول مرة ما يعرف اليوم بالمصطلح ومفهوم القضية وأنواعها وفيه أدخل مقولتي الكم والكيف، إذ يصنف أبوليوس الكائنات العاقلة إلى ثلاث أصناف :الآلهة وهي تسكن السماء، وكائنات البشر وهي تسكن الأرض، وأخيرا الملائكة والشياطين، وهم الذين يقومون بدور الوساطة بين الآلهة والبشر وتتمتع هذه الكائنات بجميع المواصفات التي تسمح لها بالقيام بهذه المهمة.

رواية الحمار«الذهبي»:قيم العقل الجزائري (الأمازيغي)

عندما كتب أبوليوس رائعته «الحمار الذهبي» أو «المسوخ» كأول وثيقة أدبية مكتوبة عرفتها البشرية، لم يكن الرجل يدري أنه قدم للإنسانية باقة فكرية رائعة، وشكل بتقمصاته ثورة جديدة في بناء قيم العقل الجزائري.

لا يمكن أن نستوعب اليوم ونحن نقرأ "الحمار الذهبي" ونتخيل أننا ننظر بعين الإمعان إلى وجوه الجماهير من المتلقين في زمن الرواية خلال سنوات القرن الثاني الميلادي؛ وقد لا نجد على محياهم أي تصرف أو أي رد فعل غريب يوحي بمدى عجائبية القصة ذاتها، التي اعتبرت بمثابة جزء من منظومة أدبية تضم قصصا ومسرحيات وأشعارا كانت حينها نوادر عادية تشبه ما نشاهده اليوم من أفلام وما نقرأه من روايات وقصص الأدب الواقعي.

1- عثمان سعيدي- الجزائر في التاريخ، دار الأمة للطباعة والنشر الجزائر ،2003 ص 122-127.

إذ أنه ومن المفروض في تلك المجتمعات، أن تعبر الأسطورة عن الحقيقة المطلقة، لأنها تروي تاريخا مقدسا، وتكشف عن وحي يتجاوز حدود البشر، حصل في الزمان الكبير، في زمان البدايات المقدس.[1]

حيث يبدو أبوليوس في الرواية منخرطا في طقوس دينية، من خلال حديثه عن إشكالياتٍ قديمة ترجع حينها إلى عدة عقود، فإشاراته المتكررة إلى طقوس تمجد عبادة الإلهة «إيزيس»، خير دليل على التربة الفكرية والأسطورية التي ترعرع فيها الكاتب.

المسوخ والتحولات والسحر ومحاورة الكائنات الغريبة، وتقبل كل ما تقوله الآلهة المتقمصة للأشكال البشرية والحيوانية من أخبار وأوامر.. كلها كانت أمورا في بدايتها مقبولة بشكل طبيعي وبديهي، كم من حمار حقيقي كان يرى فيه هؤلاء الأشخاص وبكل صدق أنه لسيوس جاءهم متنكرا ليتجسس على حياتهم الخاصة، وكم من حمار كان ضحية لنهاية بائسة نتيجة لهذا التفكير البدائي الساذج؛ الذي ما انفك المجتمع يتحرر منه عبر عقود من الزمن حتى أمست بعض رواسبه موجودة ومحفوظة إلى اليوم، في سلوكيات المجتمع الجزائري خاصة الأمازيغي، في شكل ظواهر وأنماط مختلفة أغلبها مرتبط بسنن الطقوس ومناسك العبادات الروحية.

إن ظاهرة التقمصات في رواية «الحمار الذهبي» توحي بوجود خلل ما في طبيعة الشخصية المحورية لأبوليوس التي جعلت منه ذاتا تائهة انتقلت في لحظة غباء من طبيعتها الإنسانية إلى أخرى حيوانية، ليدرك عبر خطأ فني في طريقة استخدام دهن عوض آخر مفهوم الحياة والمجتمع من منظور وزاوية خاصة.

على هذا الأساس تسابقت الأقلام منذ القديم في تناول رواية أبوليوس بالتأمل والدراسة في مدارس تاريخية وقراءات نقدية وأدبية متنوعة، إلاّ أن الرواية وحسب المهتمين ظلت من بين أهم وأغرب وأعقد القصص الإنسانية إطلاقا، وأكثرها انتشارا واقتباس أو ترجمة، وذلك على الرغم مما شابها من خلل ونقص وزيادة في الحكي والنقل والنسخ.

إن أسلوب السرد عند أبوليوس يتميز بخصائص معينة، نستطيع من خلالها أن نقف عند جزء مهم من أسرار ترصد طرق التفكير عند الكاتب في علاقته بالمجتمع الذي عاش فيه بحيث استثمر فيها بشكل واسع وواضح أحاسيسه وانفعالاته وتأويلاته، لواقع يبدو أنه يرتكز أساسا على قيم الشر، ضمن منظومة تتعلق بالداء الاجتماعي وما يوازيه

1- لوكيوس ابوليوس – الحمار الذهبي- المرجع السابق- ص 20.

من سلوكيات تتمثل في الغدر والعنف والعهر والسحر، وصراع يكون فيه الإنسان في مواجهة الاستغلال الاجتماعي الفاحش والمصير المجهول.[1]

ويمزج فيه أبوليوس بين الأحداث الوهمية والحقيقة المستمدة من الواقع اليومي ومن تصوير أخلاق عصره كانت الرواية تعج بأسماء ومصطلحات ومسميات معقدة وأحداث ومواضيع غير واضحة وعادات غريبة لا يستطيع الباحثون اليوم فهم كنهها؛ فإن هذا يعود أصلا إلى وجود فجوة عميقة في الذاكرة التاريخية لشمال أفريقيا، التي مازالت مجهولة المعالم اكتشاف حقيقتها سيساهم بشكل أو بآخر في حل العديد من الشفرات التاريخية الغامضة التي يتميز بها بالخصوص الأدب المتوسطي القديم، من أجل وضع حد للتخمينات والتأويلات المغرضة التي لا تفيد في شيء فالرواية على الرغم من بعض الغموض الناجم عن طبيعتها الغرائبية فإنه لا يمكن أن ننفي عنها قيمتها التاريخية العظيمة، فهي تختزن في طياتها صوت الضمير الأمازيغي، كما أنها تمكنت وبشكل كبير من تسجيل ورصد طرق التفكير حينها؛ ونقلت إلينا تلك الحضارة بجل تفاصيلها الدقيقة المرتكزة على توثيق تاريخ الأحاسيس والرغبات، التي لا يمكن تأريخها إلا في إطار نص أدبي في حجم وقامة رواية « الحمار الذهبي ».

ثانيا-القيم الأخلاقية عند القديس أوغسطين:

ولد في منتصف القرن الرابع ميلادي في 13 من شهر نوفمبر 354 م في مدينة طاجست سوق أهراس حاليا جنوب مدينة عنابة من أب وثني وأم مسيحية لم يعتنق الوثنية إلا في أواخر عمره، فهو ينتمي إلى العصر الذهبي لآباء الكنيسة، وطنه هو إفريقيا بكل ما تمثل من روابط مادية وعاطفية وروحية، كان رجلا مرهف الحس في داخله مجموعة من الصفات المتناقضة فكثيرا ما كان يحلق بنظره في الكون وكثيرا ما كان يعود إلى نفسه مهتما ببدنه وبإشباع ميوله الحسية[2]، نشأ وتعلم في مداوروش وقع تحت تأثير مذهب الشكاك وفي روما تمكن من دراسة أراء شيشرون وتفهم المذهب الأفلاطوني الجديد الذي قربه إلى مراحل العقيدة المسيحية وأحرز في مدينة ميلان على كرسي تدريس البلاغة والفلسفة ويزعم انه يحتقر الماديات، درس وتعبد على مذهب الكاثوليك.

1- الشيخ كامل محمـــد عويضة- اوغسطين فيلسوف العصور الوسطى- دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 1993- ص44.

2- الشيخ كمال محمـــد- الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى- دار الكتاب للنشر بيروت، ط1،1993،ص 34-35

1- الأخلاق عند أوغسطين:

تسمت أفكار القديس أوغسطين الأخلاقية بكونها امتدادا لحياته الواقعية وثمرة تجاربه الحياتية، وهو لا يتردد في الإشارة إلى الدور التربوي لأمه في توجيهه نحو الفضائل وتشجيعه على السير في خطى العفاف، ويقول القديس أوغسطين(13 نوفمبر 354 - 28 أغسطس 430) عن أمه " فإني لازلت أذكر تأثير جوابك علي بلسان أمي اليقظى وهدوئها التام لقاء شرحي الحرفي الخاطئ وسرعتها في إدراك ما عييت عنه ... فأمي التي ولدتني بالجسد فقد كانت تتجول في ضواحي بابل المذكورة رغم نجاتها من وسطها وتدعوني إلى حياة أعف وأطهر"[1].

وهذا التأثير المبكر لامرأة عاشت ظروفا صعبة كان له تأثير بالغ على توجه أوغسطين الديني مما جعل أفكاره الأخلاقية تتسم بخلفية مسيحية واضحة، إلا أن إتباعه لتعاليم الدين المسيحي كان قويا وباختيار إرادي وذلك لما عرفه من انغماس كبير في الملذات والشهوات، ممـا دفعه إلى المرور بأزمة نفسية حادة يعترف بها في (اعترافاته الشهيرة) يقول: " سمعت صوتا من المنزل المجاور...يصيح ويكرر....تناولها واقرأها ...توقف سيل الدموع مني ونهضت لأني فهمت أن هذا لا يمكن إلا أن يكون سوى أمر من الله لأفتح وأقرأ الكتاب المقدس وأقرأ أول فقرة تصادفني...لا بالبطر والسكر لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد بل ألبسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدابير الجسد لأجل الشهوات.." وكانت هذه التجربة بمثابة التحول المفصلي في أفكاره حول أهمية العقيدة المسيحية في إصلاح الحياة الأخلاقية لأتباعها، مما يدل على أن الفكر المسيحي يتمحور بشكل رئيسي حول القضية الأخلاقية من خلال التبشير بتعاليم دينية محددة.

وتشكل الخطيئة الفكرة الجوهرية في أخلاق القديس أوغسطين وهي ذات مصدر يتجاوز الإنسان، لأن مصدرها الأول هو (الشيطان) الذي اقترف المعصية في الأكل من الشجرة المحرمة، مما يجعل من الأخلاق بالنسبة للإنسان إنما تتمثل في محاربة الشطان في النفس البشرية من خلال التمسك بالتعاليم المسيحية.

فقد تحدث الكتاب المقدس عن الخطيئة على أنها تبعد الإنسان عن طريق الله، وفي هذا يقول بولس إذا فالعالم كله حسب ما جاء في العهد الجديد وقع تحت سطوة الخطيئة وأنه الجميع اخطئوا وأعوزهم مجد الله لا يوجد إنسان حي لم يخطئ، ويعرف العهد الجديد الخطيئة بأنها التعدي على حدود الله ويؤكد على أن الجميع أخطئوا بـإرادتهم، جـاء في رسالة يوحنا الأولى " كل من يفعل الخطيئة يفعل التعدي أيضا. والخطيئة هي

1– القديس أوغسطين، الاعترافات،تر: الخور الأسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، الطبعة 3، 2013، ص 55.

التعدي."ويقول بولس"إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما". فبولس في هذا النص يرى أن الإنسان مهما كان خاطئا ثم تاب عن خطيئته وآمن بالمسيح فإنه يتبرر في الحلال"، يعني أنه إذا آمن بأن المسيح مات من أجله على الصليب قبلت توبته.

2- الفضائل عند القديس أوغسطين :

ينطلق القديس أوغسطين في طرحه لموضوع الفضيلة من فكرة أساسية مفادها إن الفضائل يجب أن تكون حربا على الرذائل، لأن الفضائل التي يقصدها القديس أوغسطين تكتسب بالتربية وليست فطرية فينا؛ حيث يقول: "الفضيلة ذاتها لا تعد بين خيارات الطبيعة الأولى، لأن التربية تدخلها لاحقا بعدها، على ان الفضيلة التي تطالب بالمركز الأول بين خيارات الإنسان ما هو عملها هاهنا؟ وإلا كانت حربا على الرذائل، لا على الرذائل الخارجية بل الداخلية، ليست حربا على الرذائل الغريبة بل على رذائلنا الخاصة والشخصية[1]".

وقد استمد القديس أوغسطين هذه النظرة للفضيلة من تجربته في الحياة، إذ رأى انه لو كانت الفضائل طبيعية أو فطرية في البشر لما عاش اثنان وثلاثين سنة من عمره غارقا في أوحال الرذيلة، بل لكان فاضلا منذ والدته، وعلى هذا الأساس استنتج أن الناس لا يولدون فاضلين وإنما يكتسبون الفضيلة.

ويجعل القديس أوغسطين جميع الفضائل عنده في أربعة فضائل أساسية رئيسية يطلق عليها اسم الفضيلة الرباعية يعرفها على أنها تنوع في التعبير عن حب الله في قوله: " أما ما يسمى بالفضيلة الرباعية فهو تنوع في التعبير عن الحب ذاته بقدر ما يدركه عقلي"وتتمثل هذه الفضائل الأربعة في:

فضيلة البر:

هي الفضيلة التي تعنى بالحب الذي يجعل للإنسان سيدا واحدا هو الله، فيكون خادما له بصدق وانقياد كاملين بلا قيود أو شروط، فهو يكسب الإنسان قوة وإرادة وحبا جما في ان يسير في خدمة الله طوعا لا كرها، ويعرفه القديس أوغسطين بقوله " الرب هو الحب الذي لا يخدم سوى محبوبه" ، ولذلك فهو يسيطر جيدا على الباقي أي على ما هو خاضع للإنسان يقول "والرب بهذا المعنى يكون هو الحب الذي يجعل المرء يثق في خالقه، فيعمل بأوامره بكل طاعة وينتهي عما نهاه عنه بكل رضوخ فلا يخالفه إلى غير

1- الشيخ كامل محمد عويضة- اوغسطين فيلسوف العصور الوسطى- المرجع سابق- ص 40.

ذلك أبدا، ويهب الرب من يحب الله قاعدة للحياة تساعده على ان يخدم الله الذي يحبه خدمة طوعية، لكونه الخير الأسمى والحكمة السامية والسلام الأسمى، وعلى أن يسيطر على ما هو دونه ويحسن الظن بما يجب أن يخضع له".[1]

فضيلة القوة:

تمثل الحب الذي يجعل المرء يتحمل كل العذابات والآلام في سبيل محبوبه، فيخوض الصعاب في سبيل الوصول إليه، ثم يخوضها تارة أخرى في سبيل الدفاع عنه، يقول القديس أوغسطين: "القوة هي الحب الذي يحتمل كل شيء في سبيل محبوبه.... فهي الحب الذي يحتمل كل شيء وبسهولة في سبيل الله"، أي أن القوة الحقيقية عند القديس أوغسطين، هي أن على الإنسان ان يصارع ويكابد كل معاناه ممكنة دون اكتراث للآلام التي تسببها حتى يصل إلى الله، كما ان عليه ان يصبر على ذلك الحال بعد وصوله إلى الله، فيتحمل المصاعب والمصائب من جديد في سبيل تحقيق محبته ورضاه وفي سبيل الدفاع عن دينه وعقيدته، وألا يهتم أبدا بالمغريات الدنيوية والشهوات الجسدية والخيور الزمنية، بل عليه ان يزداد قوة كلما خسرها .

ويقول في هذا الصدد " فالقوة هي الحب الذي يجب ان يكون مضطرما لله. فيكبح جماح رغباتنا حتى إذا خسرها كان قويا"،ثم يعطينا القديس أوغسطين مثالا عن الصبر بقصة سيدنا أيوب لما ابتلاه ربه؛ فخسر ماله وأولاده وصحته ليصبح فقيرا بعدما كان غنيا، وسقيما بعدما كان صحيحا، إلا انه صبر ولم يكترث إلى ما أصابه، بل ازداد قوة ومحبة إلى الله في قلبه، فلما خسر أيوب ماله كله وأصبح معدما، ظل متحدا بالله في قلبه اتحادا لا يتزعزع واظهر عدم اكتراث برزقه واعتبر الله أسمى كنز عنده.[2]

فلو أن كل إنسان في نظر القديس أوغسطين قد تحلى بمثل هذه الفضيلة لما كان بحاجة إلى أنبياء ورسل أو كتب مقدسة لترشده وتوصله إلى السعادة، فلو تحلى أبناء عصرنا بجرأة مماثلة لما كنا بحاجة إلى قدرة الكتب المقدسة كي نبعد عنا تلك الخيارات بلوغا إلى الكمال وبالرغم من كل الثناء الذي أثناهأوغسطين لهاته الفضيلة إلى انه يحذر من مغبة.

فضيلة الفطنة:

هي الفضيلة الرابعة، وتتمثل في الحب الذي يساعد المرء على التمييز بين ما يساعدنا علىالبلوغ إلى الله وبين ما يمنع ذلك عنه، أي التمييز بين ما يقربنا من الله وبين ما

1- أوغسطين، مدينة الله، تر: الأسقف يوحنا الحلو دار الشرق بيروت ج3، ص- 335.
2- أوغسطين، خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، تر: يوحنا الخوري دار المشرق بيروت، 2013 – ص12.

يبعدنا عنه يقول "الفطنة هي الحب الذي يميز بين ما يساعد على البلوغ إلى الله وبين ما يمنع عنه ،...، الفطنة هي الحب الذي يميز بينما يقرب إلى الله وما يبعد عنه"، وتعنى هذه الفضيلة بالحذر الدائم والتسلح بالانتباه، مما يبعد المرء عن محبوبه والسعي إلى المجد وإلى ما يوصل إليه في كل حركاته وسكناته، فالفطنة أن تتسلح بالانتباه والسهر التام لئلا تقع فريسة.

كما نجد أوغسطين يعرف الفطنة في كتابه مدينة الله تعريفا عمليا من حيث استعمالها وعملها فيقول "وتلك الفضيلة المسماة فطنة إلا تستعمل وعيها لتمييز الخير من الشر، كيلا تقع في ضلال في سعيها إلى الخير وهروبا من الشر؟ ومع ذلك فإنها تشهد بأن الشر فينا، أو بأننا في الشر وهي نفسها تعلمنا بان القبول بالخطيئة شر، وأن مقاومة الميل إلى الخطيئة خير"، فالفطنة عند القديس أوغسطين هي أسمى الفضائل من باب التفضيل بين الفضائل الأربع؛ لان المرء إذا فقد الانتباه والحذر فيما يقربه إلى الله وفيما يبعده عنه، فلا حاجة له إلى باقي الفضائل الأخرى، لأنه حتما إذا فقدها سوف يقع يوما ما في شراك التعطيل التي تسير به إلى ما يبعده عن الله شيئا فشيئا إلى أن تحط به في جحيم الكفر، يقول القديس أوغسطين: "إنأعوزتك الفطنة فلا مجال للفضائل التي سبق الكلام عنها".[1]

فضيلة الاعتدال:

الاعتدال هو الفضيلة التي "تكبح جماح الرغبات الجسدية خوفا من ان تنتزع من العقلالضعيف تنازلات مؤسفة" ويكون بذلك الاعتدال هو الفضيلة التي تعنى بكبح الشهوات والميولات الجسدية، ولما كانت الفضيلة بمثابة الحرب ضد الرذيلة فان الصراع بينهما يمثله صراع الجسد والروح فالجسد يطمح ويريد مالا تريده الروح، والروح تريد مالا يريده الجسد يقول القديس أوغسطين[2]"، وإلا يجوز الاعتقاد بان لا عيب فينا حين يقول الرسول الجسد يشتهي ما هو ضد الروح طالما أن الرسول نفسه يكشف لنا عن مقاومة تقوم بها فضيلة مضادة فيقول:"الروح يشتهي ما هو ضد الجسد، مضيفا كلاهما في حرب ولستم تعلمون ما تريدون[3]".

فهذه الفضيلة المضادة كما يسميها القديس أوغسطين هي فضيلة الاعتدال، كما نجد القديس أوغسطين يعرف الاعتدال تعريفا آخر قائم على مبدئه الأساسي (الحب)، فالاعتدال هو الحب الذي يقدم ذاته إلى محبوبه كاملا، والمحبوب بحق عند القديس أوغسطين هو الله فيصبح الاعتدال حينها هو حب الله الكامل من دون عيب، كما ان

1- أوغسطين، خواطر فيلسوف في الحياة الروحية – المرجع السابق- ص 129.
2- أوغسطين، مدينة الله ج 3- المرجع سابق- ص 381.
3- المرجع نفسه، ص- 13.

الاعتدال هو بمثابة الحب الرادع للإنسان فيردعه عن الشهوات والملذات، فالإنسان عند أوغسطين نوعان إنسان ارضي آثم قد انغمس في إشباع رغبات الجسد، وإنسان سماوي قد أحب الله وعرف الحقيقة؛ فالأول قديم والثاني جديد قد أقام حياته على الاعتدال وبالاعتدال، يقول أوغسطين: "يقوم الاعتدال في ان ينزع المرء الإنسان العتيق ويلبس الجديد في الله، أي أن يرذل مغريات الجسد والمجد البشري، ويصوب محبته كاملة إلى ما هو إلاهي غير منظور ... أحب الله وأرذلكل ما هو محسوس واستخدمه فقط لقضاء حاجات الحياة الدنيا".[1]

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الديانة المسيحية جاءت لتأسس منظومة أخلاقية تستمد مفاهيمها الأساسية من العقيدة الدينية التي تبشر بالمسيح المخلص الداعي للسلام و الأخوة بين البشر، فأخلاق الإنسان في نظر المجتمع الديني إما أن تكون صالحة أو شريرة وعلى أساس صلاحها من عدمه يتحصل نتيجة لها على الثواب أو العقاب، فالأنبياء عموما جاءوا ليحققوا مكارم الأخلاق، وبذلك توثقت العلاقة بين القيمة الأخلاقية والمعتقد الديني.

ثالثا: القيم الأخلاقية عند الأمير عبد القادر:

يعتبر الأمير عبد القادر من الشخصيات البارزة التي تعد مضربا للمثل في إنسانيته، فإذا كانت الحروب تعرف بوحشيتها وصراعها الدموي، فقد عمل على إخضاع القتال إلى بعض القواعد التي تمليها الاعتبارات الإنسانية، كما انه كان صوفي متفلسف مجدد لم ينعزل ولم يكتف بالتفرغ للتعبد بل ساهم في الحياة الاجتماعية والسياسية والدنية من خلال اهتمامه بأحوال الناس ومشاكلهم أينم احل، وعمل على علاجها فقد عكس سلوكه نموذجا لسموه الأخلاقي، لما تميز به من قيم السلم والتسامح فكيف جسد هذه القيم؟ وكيف جمع بين السيف والقلم؟وما أبعاد فكره؟

إن المتتبع لحياة الأمير عبد القادر يرىأن شخصيته الحقيقية تتحجب وراء اعتباره مقاوما أكثر من الإشارة إليه كعارف، "بينما كانت حياته الفعلية كلها نوع من السر الروحي حتى وهو يمارس دوره في تسيير الشؤون العامة، فهو في صميمه كنه غائب عن العالم، وهذا ما كان ماكسفيبر" لما يدعو النموذج المثالي للبراءة الدينية التي تكون في صميم الحياة الاجتماعية.

1- أوغسطين، خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، المرجع سابق، ص- 122.

"نشأ الأمير في مهد العلم والتقوى والتفوق بالأدب والفقه والتوحيد والحكمة العقلية، ثم إنه كان من بيت فروسية، ومن تقاليده المتثاقفة بالسلاح وركوب الخيل وبذلك جمع الأمير بين السيف والقلم ".[1]

وعرف كمناضل وطني قاد الحرب ضد المستعمرين الفرنسيين بعد تسميته أميرا في 22 أكتوبر1832، ولكنه حاول في الوقت نفسه أن يعطي للحرب وجها إنسانيا، كما كان شاعرا وصوفيا، ومتكلم أفضلا عن مسؤولياته كرجل دولة وحرب.

عكس سلوكه سموه الأخلاقي، لما انطوى عليه من شيم النبل والعظمة، مما جعله محل بحث الدارسين لاستجلاء معاني القيم الأخلاقية النبيلة، وكيفية الاستفادة منها للتعامل بها في الحياة الاجتماعية؛ كانت فلسفته قائمة على أساس أخلاقي قوامها رؤية الأمور من فوق المصالح الفردية، وتحمل صدمات الحياة وحوادثها بصفاء " أي فلسفة ترفع الإنسان فوق الطموح والثروة «وتظهر فلسفة الأمير عبد القادر من خلال مصنفاته المتميزة في قسمين: القسم الأول يضم رسالتين وهي: "المقراض الحاد" وذكرى العاقل وتنبيه الغافل، أما القسم الثاني يتمثل في "المواقف".

ويظهر من خلال مصنفاته تأثره بالفلاسفة اليونانيين سقراط، أفلاطون، أرسطو، فيتاغورس وطاليس وكذا بفلاسفة الإسلام كالطبري وابن خلدون اللذان أعجب بهما وكذا الغزالي وغيره[2].

1- الأخلاق في فكر الأمير عبد القادر:

كان الأمير شغوفا بموضوع الأخلاق فكرا وممارسة، وأزداد هذا الاهتمام بعد فترة هجره للسيف والمقاومة، غير أن المتتبع لسيرة حياته يلاحظ أن فكر الأمير كان دائما مغمورا إما بالبحث الأخلاقي أي بالبحث على الدوام عن الصفاء الأخلاقي، لذلك ربط بين التصوف والمجاهدة، وقد حذر الأمير المتصوف الذي يجاهد نفسه بالمكابدة الشاقة لطلب جاه عند الملوك أو لصرف وجوه العامة إليه أو حصول غنى أو نحو ذلك، كما يرفض أن تكون دوافع عبادة الإنسان قائمة وعلى أغراض نفسية لتحقيق حظوظ شهوانية، لذا يمكن تلخيص "مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر أنه يتجلى في جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة والعبادة الخالصة لله تعالى والحضور الدائم مع الله تعالى".

1- جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للنشر والتوزيع-ط1- 1987- ص260.
2- فؤاد صالح السيد- الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا -المؤسسة الوطنية للكتاب 1985- ص96

يقوم التصوف على العلم ويقصد بالعلم هو معرفة بالنفس وأحوالها حتى يتحقق إخلاصها لله لذا يقول:"إن كل من لم يسلك طريق القوم، وهم المتصوفة ويتحقق بعلومهم حتى يعرف نفسه لا يصح له الإخلاص ولو كان أعبد الناس وأورعهم وأزهدهم وأشدهم هروبا من الخلق...[1]، فالمعرفة بالنفس تتحقق عن طريق المواظبة على العبادات والإقبال على أمر به الحق من الفرض والنوافل، حتى يصل إلى الكشف واليقين بمجاهدة النفس وتنقيتها من الشرور، غير أن تصوف الأمير لم يتحدد في انعزاله عن الحياة الاجتماعية ولبس لباس الصوف، وإظهار الزهد والتفرغ للعبادة فقط "فهو يرى أن الوجود أو الحضور في العالم يستنشق في كون المتصوف بوجه عام يضطلع بمسؤولياته الاجتماعية ويمارس وظيفته الأمر الذي يجعله في اتصال وثيق ويومي مع أمثاله، ويتجلى تأثيره بشكل بطيء ومستمر عن طريق القدوة والعظة والمتصوف، قاس تجاه نفسه ويخضع ذاته لنظام قاس ويدعوا للزهد وقد يذهب به الأمر إلى حد إماتة الجسد كي يجعل من ذاته أداة طبيعة ومناسبة لرسالته العظمى"[2] تنطوي ميوله إلى الحياة الاجتماعية على حرص عام وتبجيل للجنس البشري ولكي ينتشل النفوس من خطاياها وبلوغ القلوب يمتنع عن كل عنف، لن عنف ينفر ويبعد الغير وسيكون متسامحا ومتفهما ولطيفا وصبورا جدا.

تميز تصوف الأمير عبد القادر عن غيره كونه يعتبر أول من جمع بين الجهاد والتصوف تجلى ذلك من خلال دراسة مراحل حياته أي تصوفه يظهر في مقاومته للعدو، وفي سجنه وفي منفاه، كما عبر عنه في معاملاته وفي كتاباته ولقاءاته ومواقفه وفي دفاعه عن المظلومين بدون تميز، ومساعدته للفقراء والمحتاجين.

لقد كان جهاد النفس هو أساس تصوف الأمير بحيث كان يرى " أن المتصوف لا بد له من أن يكون في جميع أحواله وتصرفاته حاضرا مع الله تعالى، وبذلك يكون له علم بمعرفة النفس وأحوالها حتى يتحقق إخلاصها لله وممارسة الرياضات الشاقة، وهذا س يوعد حتى إلى جهاد النفس.[3]" وقد عبر الأمير عن مجاهدته هذه في المواقف بقوله "ومن بعض نعم الله تعالى على أنني مقدر رحمة الله بمعرفة نفسي، ما كان الخطاب لي والإلقاء على، إلا بالقرآن الكريم العظيم، فكتاب المواقف مدونة أخلاقية، أكد فيها خاصة على إشكالية جهاد النفس عن طريق التخلية والتحلية فهو الجهاد الأكبر وجهاد العدو، لا يكون خالصا إلا إذا كان منبثق عن جهاد النفس.

1- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، المرجع السابق- ص114.
2- محمـــد شريف ساحلي- الأمير عبد القادر فارس الايمان- ترجمة محمد يحياتن- منشورات anep- 2008- ص 60.
3- فؤاد صالح السيد- الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا - المرجع السابق - ص115.

حيث ركز على عنصر الأخلاق الذي يجب ألا تتحدد المعاملات إلا بمقتضاه فهو منبعها وغايتها، لذا فقد ميز بين الخلق في صورته العامة لهيئة النفس وصورتها الباطنة، فهي مصدر القيم كالوفاء، والصدق والغدر والكذب وبين الحسن أو السلوك الذي يكون مصدر الخير والفعل الأخلاقي الحسن. فعلى الرغم أن الدين هو أساس الأخلاق عند الأمير إلا أن الممارسة الأخلاقية في نظره لا يكون لها أية قمة إلا إذا لم تكن منبثقة من العلم والمعرفة حيث يقول "إن جميع الحيوانات تنشدالمتعة بوصفها كذلك، فإن المتعة لا يمكنها أن تشكل غاية أخلاقية لن كل غاية أخلاقية يجب أنتضطلع بشرط مزدوج، الاستجابة للطبيعة الخاصة للإنسان وضمان ترقيته اللامحدودة عن سبيل الكمال، والعلم وحده هو الذي يستطيع أن يهب الإنسان متعة من هذا القبيل فهو الذي يسخر قدرته الكبرى والأكثر تميزا للفكر فالعلم يعني بالنسبة إلى روحه إثراء لا حدود له ومتعة لا تبعث على الضجر إطلاقا".[1]

جعل الأمير العلم والمعرفة أساس ارتقاء الإنسان إلى الكمال، فالخير يفقد قيمته ومعناه بدون العلم والمعرفة. فالأمير كان يبتغي القرب الخالق، فبقدر محبة الخالق والشوق إلى التقرب إليه بقدر ما يزداد حبه إلى معرفته بالحبيب المطلق وواجب الوجود.

2- قيم السلم والتسامح في فكر الأمير عبد القادر:

لقد كانت الشريعة الإسلامية منهلا لقيم السلم والتسامح الديني تشبع به قلب وعقل الأمير عبد القادر جعله قدوة لغيره في بث قيم السلم والتسامح التي دعا إليها الإسلام، حيث يقول "كثير ما يورد مبتورا تكذيب البعض (الرسل) وتصديق البعض قصورا ولو أصغي إلى المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا"[2].

فالاختلاف في العقائد في نظره لا يمنعهم من أن يكونوا إخوة، ويقول أيضا "إن رد المسيحيين على اليهود هو الرد نفسه الذي وجه للمسيحيين فما قاله المسيح هو نفسه ما قاله الرسول، ما جئت لأبطل الإنجيل والتوراة، وإنما جئت لأكملهما ففي التوراة أحكام السياسة الظاهرة العامة، وفي الإنجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة، وأنا جئت بالسياستين جميعا، حيث جئت بالقصاص ولكم في القصاص حياة، وجئت بالعفو وأن تعفو أقرب إلى التقوى خذ العفو وآمر بالعفو وأعرض عن الجاهلين هو إشارة إلى السياسة الباطنة الخاصة، وهذا دليلعلى أن محمد ﷺ خاتم النبيين، لنالنبوة حكمة والحكمة إما عملية أو علمية أو جامعة بينهما...".

1- الأمير عبد القادر- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل- ص41.
2- المرجع نفسه، ص103.

ففكر الأمير عبد القادر يعبر عن رؤية بوحدة الأديان فجوهر هذه الأديان واحدا، يتجلى في وحدانية الله، الله خالق العالم، الله خالق جميع الكائنات دون علة، القدرة التامة، فكل منها حملت أحكام إلا وجاءت الأخرى فنسختها ليس لإبطالها وإنما لتكميلها، وهذا ما عبر عنه فالشرائع تتكامل في الباطن وإن اختلفت في الظاهر، لهذا فإن مقاومته انبنت على أساس إنساني فرغم بشاعة الحروب وقساوتها إلا أنها تشبعت بالقيم السامية.

وقد عبر عن ذلك الأمير في سلوكه وفي قوله من خلال مراسلة حيث كتب ليون روش 1844 باسم بوجو رسالة تنطوي على ألفاظ ماكرة اضطر الأمير إلى الرد عليه بنبرة ساخطة "إنك تدعوني إلى إيقاف حرب تزعم أن ديني والقوانين الإنسانية تستهجنها إني على دراية بما يأمرني به ديني، وليس المسيحي هو الذي يلقن المسلم معنى القرآن. أما الإنسانية فيحسن بك أن تنصح الفرنسيين أولا باتباع النصائح التي يسدونها إلى، ترى من هم الذين يخترقون قوانين الإنسانية أهم أولئك الذين اجتاحت جيوشهمبلاد العرب الذين لم يهينوهم، والذين حولوا بيوتهمإلى خراب.. أم أولئك الذين يحاربون من أجل ضد العدوان القائم وتحرير بلادهم من نير الغزاة.[1]".

لقد كانت محاربته للعدو الفرنسي منبثقة من صفاء روحه وسمو أخلاقه التي كانت تنبذ الظلم والاستبداد والاستعباد. وهذا ما جسدته خصاله الأخلاقية التي تفوح بروح التسامح والرحمة والحلم في أحداث دمشق في ماي 1860 حيث علم بالمؤامرة التي كان تعد لها بعض الأطراف الأجنبية (فرنسا وانجلترا) أحدهما تدعم الدروز والأخرى المارونيين فباستغلال الصراع التي تؤدي إلى اضطرابات دموية يكون التدخل ا لأجنبي المسلح، فإن هذه المجازر كانت ستتم تحت أمرة الحاكم التركي بدمشق الباشا أحمد، وقد أدرك الأمير بتبصره السياسي المحركات الدسيسة الخاصة بمشروع الشرق الأوسط، وحاول التصدي له، عمل على إيقاف المجازر التي كانت تبيد المسيحيين، حيث كانت تنادي بالموت للمسيحيين، إذ جمع في بيته المسيحيين حيث كان ينادي في الشوارع " أيها المسيحيون تعالوا، أنا عبد القادر بن محي الدين تعالوا سأحميكم، وقد بلغ الملتحقين ببيته حوالي سبعمائة شخص وقد تحول منزله إلى ملجأ للمسيحيين، غير أن انتشار الخبر قد استغله البعض للاحتشاد أمام بيت الأمير ولمطالبة بالمسيحيين، فعلى الرغم من محولته لرد وإقناع الناس بالعدول عن أفكارهموأفعالهم المتوحشة،إلا أنه لاحظ عدم جدوى ذلك، لذا فاستقام متحديا قائلا:" المسيحيون؟ لن تنالوا مسيحيا واحدا طالما ظل جندي من جنودي حيا، المسيحيين ضيوفي يا قتلة النساء والأطفال هيا حاولوا أخذهم وسترون كيف

1- محـــمد شريف ساحلي، الأمير عبد القادر فارس الايمان- المرجع السابق- ص 114.

يحسن جنود عبد القادر القتال أقسم بالله بأننا سنجاهد من أجل قضيتناالمقدسة بالأسلحة والجواد".[1]

وهكذا يمثل الأمير عبد القادر بين جهاده من أجل وطنه وحريته، وتصديه لبني ملته في الدين من أجل نصرة الحق والإنسانفرغم أن القضية الأولى كانت ضد الصليبيين والتصدي لعدوانهم والقضية الثانية كانت في التصدي للمسلمين وظلمهم للمسيحيين. فالقضيتين بالنسبة للأمير عبد القادر لاتختلفان لوسيلتهما هي القمع والعنف القتلمحركهما هو الظلم ونبذ الإنسانية وحرية الإنسان في الفكر والمعتقد، لذا فكلتهما اعتبرهما مقدسان ويجب محاربتهما، فهو قد حارب التعصب والفوضى، والظلم وقمع الحرية وهكذا فقد سجل له إيقاداثنيعشر ألف مسيحي.

وقد أظهر مقاصده الأخلاقية في رسائله التي رد فيها عن الذين عبروا عن امتنانهم لما فعله يقول الأمير في رده على السويسري أنبارد غداة أحداث دمشق " أما فيما يتعلق بقولكم يا صديقي حول تناهي إلى الصحافة في شأني، فإني أقول لكم بأنني أكن عناية وتسامحا جما للناس، الأمر الذي يجعلني أجنح إلى احترام جميع الناس مهما كان معتقداتهم ودينهم، بل إني أذهب إلى حد حماية الحيوانات ولا أرغب في إيذاء أي كان بل على العكس أسعى إلى خيرهم، إن الله خلق الناس كي يكونوا عباده لا عبادا لغيرهم ولكن للأسف أرى في زماننا هذا أن أولئك الذين أوكل إليهم أمر قيادتهم ،إذ جعلوا منهم عبيدا، وبدل أن يجنحوا إلى نجدة الفقير وحماية الأرملة واليتيم يستولون على ممتلكاتهم ويسخرونهم لإرضاء نزواتهم.[2]

فالأمير من خلال هذه الرسالة يحدد أهم المبادئ الموجودة في فكره،والتي آمن بها كما هو يدعو لها وهي حرية الفكر والوعي، الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، فتصوفه تحكمه أبعاد سامية تسعى أن ترتقي الإنسانية إلى مكانة متعالية من سمو أخلاقي، دور الإنسان في هذه الحياة مهما كانت ملته أو اعتقاده هو التعمير وليس التدمير، والارتقاء بالعقل وليس الاستعباد للنزوة والهوى حيث يستبد بأخيه الإنسان ويسلبه حريته وحقوقه، بل يجب أن تكون المحبة والرحمة هي نبراسه والحلم والعفو والتسامح هي التي تحركه والتكامل والتلاحم من أجل البناء والتعمير وليس التدمير غايته.

فبحكم هذه الغايات الإنسانية التي تحكم فكر وسلوك الأمير عبد القادر ظل خالدا، وقدوة لسموه الأخلاقي ومنهلا للدراسات الإنسانية لكي تستنشف أبعاد فكره حتى تكون منهجا لحياة.

1- محمـــد شريف ساحلي- الأمير عبد القادر فارس الايمان - المرجع السابق- ص122.
2- محمـــد شريف ساحلي- الأمير عبد القادر فارس الايمان - المرجع السابق- ص132.

من أهم النتائج التي تم التوصل إليها من دراسة فكر الأمير عبد القادر أن الإنسان هو رسول عقيدته وفكره من خلال المنهج الذي يحدده لسلوكه ،فحتى ولو كان رجل قتال أو حرب،فذلك لا يعني الابتعاد عن الحكمة، بحيث تحكم الهمجية والوحشية سلوك الفرد إذ يجب دائما احترام الذات الإنسانية والتعامل معها بهذا المبدأ حتى وان كان عدوا له، كما لا يجب التغاضي عن الواجب اجتماعي و الأخلاقي، أينما حل ووجد فهو مدعو لمساعدة أخيه الإنسان، تلك هي قيم الإسلام والتي عمل على تجسيدها في تعامله وكان سفيرا لها، وبين عالميتها الإنسانية، احترام حق الإنسان في الحياة ،لذلك سجل له التاريخ أنه كان رائد من كبار رواد النهضة الإسلامية والتي شرع فيها في القرن 19، وهكذا جمع الأمير عبد القادر ذويه وأعدائه القدامى في عبادة قيم مشتركة - قيم السلم والتسامح.

لقد استمرت هذه الدعوة لمحاربة العدو بالقيم التي جاهد من أجلها الأمير عبد القادر نصر الإنسان والإنسانية وفق قيم السلم والتسامح التي دعت إليها الشريعة الإسلامية وهو ما حاولت أن تكرس له الصحف والطرق الصوفية في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، ببث روح التسامح في قلب المسلم عامة والجزائري خاصة ودعوته لتأدية الواجبات الدينية،بل و حتى الاجتماعية بمراعاة القيم الإنسانية "احترام الإنسان في ذلك"، أي حتى يؤدي كل فرد دوره في مساعدة أخيه وارتقاء بمجتمعه حضاريا، و أخلاقيا وهذا بالتزام القيم الأخلاقية الفاضلة، بنشر المحبة والتعاون، بتلاحم وتراحم، الأفراد فيما بينهم.

الفصل الثاني: القيم الأخلاقية في فكر عبد الله شريط

المبحث الأول: عبد الله شريط وأعماله الفلسفية.

المبحث الثاني: القيم العلمية والنظرية في فكر عبد الله شريط

المبحث الثالث: معركة المفاهيم (عبد الله شريط).

من خلال هذا الفصل نحاول التعرف على بعض المحاولات الجادة والدراسات الهامة في مجال البحث الأخلاقي لدى بعض المفكرين الجزائريين المعاصرين ومن بينهم المرحوم عبد الله شريط من خلال أطروحته المقدمة لنيل درجة الدكتوراه تحت عنوان: الفكر الأخلاقي عند عبد الرحمان ابن خلدون.

المبحث الأول: عبد الله شريط وأعماله الفلسفية:

"يعتبر عبد الله شريط واحدا من أقطاب الثقافة الوطنية المعاصرة وعميد الفلاسفة الجزائريين، عالم موسوعي وصاحب الثقافة المتنوعة، الفيلسوف الأديب المؤرخ الذي كرس حياته لخدمة الثورة الجزائرية التحريرية وصاحب المؤلفات العلمية الثرية والمقالات الغنية بالفكر والثقافة الراقية والنظريات الجادة والآراء الخصبة المبدعة في الأخلاق وفي السياسة والتربية والعمران البشري وفي أدب اللسان وفي تاريخ الأمة وفلسفة الحياة.[1]

كما يعد عبد الله شريط من ثلة الباحثين الجزائريين الذين تركوا بصماتهم على الساحة الوطنية والعربية بأعمالهم الخالدة، على غرار مالك بن نبي ومصطفى الأشرف الذين حاولوا تقصي مكامن العطب في عجلة النهضة الوطنية، ومن ثم العربية في شتى المجالات سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو فكرية، من أجل تكوين منظومة متكاملة تكون قادرة على النهضة الشاملة التي تسمح للأمة بمسايرة الأمم المتقدمة.

فإذا كان عمل مالك بن نبي يرتكز في الإجابة على القضية المحورية وهي لماذا تقدم الغرب وتخلف الشرق؟ والإشكالية نفسها تطرق إليها شكيب أرسلان من خلال جهده للوصول إلى الأسباب الكامنة وراء هذا التأخر، وحاول جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده القيام بعمليات إصلاح قد تصل بهما إلى معالجة الأمراض التي تعاني منها مجتمعاتنا، والحقيقة " أن دراسة أسباب التخلف هذه لم تقتصر على المسلمين في مشارق ومغارب بلادهم، بل شملت الغربيين أيضا رغم أن الكثير منا يعتبرهم سبب التخلف ونتيجة له، فهذا أرنست رينان في دراساته عن الرشدية يرى أن التخلف في العالم الإسلامي بعامة والعربي بخاصة مرتبط بالدين والعرف[2]، وما يدعم أطروحة رينان هذه التي تبدو للوهلة الأولى أنها تتسم بالسذاجة واللامنطقية هو مقاربته بثقافته الغربية التي

1- بوصفصاف عبد الكريم،الكلمة الافتتاحية للندوة، أعمال الدكتور عبد الله شريط الفكرية والفلسفية في ميزان الباحثين الجامعيين،الندوة التكريمية العلمية في مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة ،2004، ص-03.

2- معيرش موسى، الفكر الإسلامي في المغرب العربي، دراسات وأبحاث في العقل الجزائري، دار الكتاب الحديث، ط1، ص-41،42.

تعتبر أن الفرد الأوروبي لما تجاوز في المرحلة الأنوارية العقلية اللاهوتية المبنية على التخمينات والتفسيرات السطحية حقق النهضة العلمية والتكنولوجية، وأنتج الديمقراطية والحريات وتجاوز الأخلاق المغلقة المتزمتة.

وبالعودة إلى أعلام الجزائر، وفي خضم كل هذه الجهود المبذولة من طرف باحثينا نجد تميز أعمال عبد الله شريط وانفرادها من خلال تسليط الضوء على بعض القضايا التي كانت تبدو غير واضحة للبعض، وحتى وإن عولجت فإنها لم تصل إلى المضمون والهدف الرئيس منها، ومن هنا فالعمل القيم والمتعلق بالبحث الأخلاقي لشريط كان من خلال أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه والتي تحمل كما أشرنا سابقا عنوان " الفكر الأخلاقي عند عبد الرحمن ابن خلدون"، والتي ناقشها في عام1972.

حاول من خلالها شريط إبراز القيم الأخلاقية العملية وكيفية تجسيدها على أرض الواقع،وبالتالي إنزالها من الجانب النظري ومن مستوى الأفكار إلى مستوى العمل والتطبيق، إضافة إلى كتابه الآخر" معركة المفاهيم"، الذي يعد مجموعة من الحوارات يحاول من خلالها شريط لفت النظر إلى القيم العملية الأخلاقية خاصة من حديث ذلك الشاب ومحاوره شريط نفسه، وذلك من خلال إثارة مشكلة قطع الأشجار وكيف استنتج شريط القيم العملية وحاول ترسيخها في عقول شبابنا، إني أرى- الشباب - هنا تاريخا كاملا: كل جيل من أجيالنا السابقة ظل يقطع الأشجار ليبيعه أو بنضج به خبزه، ولم يفكر في الغابة التي ستصبح صحراء كما هياليوم، إنه كان يفكر في خبزه فقط ولم يفكر في الأجيال التي ستأتي بعده فلا تجد ما تنضج به خبزها[1].

بالإضافة إلى التحليل المتسم بالعمق والنظرة الثاقبة لهكذا مسائل، كشف المفكر شريط عن مسألة أخرى لا تقل خطورة وأهمية عن مسألة الأخلاق وتثبيتها في ضمائر الأفراد، وهي قضية اللغة باعتبارها حسبه من ركائز الأمة الجزائرية على وجه الخصوص والأمة العربية بصفة عامة باعتبارها من أبرز العوامل المرسخة لكيان الأمم وهويتها، ولهذا دخل في مناظرة حجاجية مع مصطفى الأشرف*[2] حول أهمية اللغة ودورها في المجالات العلمية والأدبية، وهذا الرد كان نتيجة طرح الأشرف، وتهجمه على

1- شريط عبدا لله، معركة المفاهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون طبعة، ص- 30.

2-مصطفى الأشرف: واحدا من أعلام الجزائر المعاصرة، بالإضافة إلى كونه أحد قادتها الثوريين، تولى العديد من المناصب بعد الاستقلال سواء كسفير للجزائر أو وزيرا للتربية، له العديد من الأعمال العلمية نذكر البعض منها: الجزائر الأمة والمجتمع عام 1956وهو عبارة عن مجموعة مقالات كتبت في مراحل متباعدة، بعضها قبل والبعض الآخر بعد الاستقلال، كما اشتهر بمناظراته مع عبد الله شريط حول مسألة اللغة. من كتاب الفكر الإسلامي في المغرب العربي- دراسات وأبحاث في العقل الجزائري- للدكتور موسى معيرش، ص- (من 54إلى 56).

اللغة العربية واعتبارها لغة تتسم بالعجز والنقص وعدم قدرتها على مسايرة العصر وما يشهده من تحول وتطور كبير.

ومن هنا كان عمل شريط وغيرته على لغته العربية دافع قوي لإعادة الاعتبار لها وإنصافها ونزع من حولها كل مكامن القصور، وعليه فإن المشكل حسب عبد الله شريط » ليس في اللغة ذاتها، وإنما المشكل في الناطقين بها، لأن اللغة تتطور بتطور الاختراعات والابتكارات والثراء الثقافي والعلمي عموما[1]، وهذه المقالات التي رد فيها شريط على رؤية الأشرف حول مسألة اللغة وأحقيتها وأهميتها جمعت فيما بعد في كتاب بعنوان "بين الإعراب والتعريب".

وفيما يخص الجانب المهني لشريط، وأقصد هنا تدريسه، فقد تنوع في تلقينه للمقاييس الأدبية والفلسفية والسياسية في جامعة الجزائر، ومن هنا تبرز ثقافة هذا المفكر الموسوعي في حد ذاته، فأساتذة التاريخ يعتبرونه من أبرز المؤرخين الجزائريين المعاصرين من خلال عمله "الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية" في ثمانية عشرة جزءا تكفلت بنشرها وزارة المجاهدين، أما اللغويين فيعتبرونه من أبرز أدباء الساحة الوطنية، ولا أدل على ذلك من تكريم الرئيس الراحل هواري بومدين له في أواخر السبعينات، ونال الجائزة الأولى مع الأديب القاص الطاهر وطار،والسياسيين يعتبرونه من أبرز الناقدين والمتمكنين من الفكر السياسي سواء كان الوطني، الإقليمي أو الدولي من خلال أعماله التي تصب في هذا المجال ككتاب: "حوار إيديولوجي حول المسألة الصحراوية" و"القضية الفلسطينية"، و"مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر".

أما فيما يخص الجانب الفلسفي فتعد رسالته في الدكتوراه حول "الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون" أهم عمل بين من خلاله غزارة وقوة نظر المفكر العربي ابن خلدون من خلال قراءة جديدة لكتابه "المقدمة" تجاوزت القراءة النمطية، كما اعتادت البحوث السابقة المنجزة في هذا الجانب، فرؤية شريط كشفت اللبس عن إشكالية خطيرة والمتمثلة في العامل الأخلاقي العملي وضرورة ترسيخه في ثقافتنا، وفي الأخير كتكريم لمجهودات هذا المفكر نظمت له بعض المنتديات والمخابر أيام دراسية عرفانا وتقديرا لأعماله الكثيرة والمتنوعة والتي ساهمت في إثراء منظومتنا الفكرية الوطنية وكذا العربية على غرار الندوة التكريمية العلمية التي أعدها مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية بجامعة منتوري

1- بوصفصاف عبد الكريم، السيرة الذاتية والمسيرة العلمية لعميد الفلاسفة الجزائريين الدكتور عبد الله شريط": أعمال الدكتور عبد الله شريط في ميزان الباحثين الجامعيين (الندوة التكريمية العلمية في مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية جامعة منتوري – قسنطينة 2004)، مطبعة عين الباي، قسنطينة ،2007 ، ص-12.

بقسنطينة شهر ماي من عام 2004برئاسة مدير المخبر "عبد الكريم بوصفصاف"، وفي هذه الندوة ألقيت حوالي أربع وثلاثين محاضرة علمية عالجت مختلف ميادين فكره.

أولا ـ وظيفية الفلسفة عند عبد الله شريط:

إن أشكال الاغتراب الثقافي الذي شوه الفلسفات العربية المعاصرة وجعلها تنحرف وتنسلخ عن التواصل الإسلامي التاريخي، وتحيد عن حل مشكلاتنا والتقريب بين وجهاتالنظر بين طوائفه وفرقه يرجع في نظر شريط حسب ما فهمنا إلى ابتعادها عن الجانب العملي و انحصارها في أفق الميتافيزيقا والمعالم التجريدية، لذا فهي مطالبة اليوم بعدما تحررت من كثير من المتاهات الماورائية وبعض المشكلات التي غرقت فيها منذ عشرات القرون في مختلف الحضارات والأحقاب التاريخية أن تحصر جهودها في أحكام الحصانة حول الفكر المعاصر، والمقصود بذلك قضايا العالم الثالث مثل التنميةوالنهضة العلمية، ولن تصل إلى ذلك المبتغى إلا بانتهاجها مبدأ الواقعية العينية المبتعدة عن الطابع الحرفي، وبالتالي فإن" الواقعية في الفلسفة هي أولا الاهتمام بمشاغل الناس الفكرية المرتبطة بحياتهم الواقعية المعاشة ومعناها ثانيا استكشاف المستقبل من خلال نبضات الحياة الراهنة بطريقة تتجاوز الواقع.

والفرق بين الاستكشافية المستقبلية والوصفية الواقعية هو ما يكرس الخلود للأفكار الفلسفية[1]، وما يزيد من صعوبة دور الفلسفة في عالمنا العربي المتخلف هو عليها أن تحارب كذلك المعضلات الخرافية والانفعالية والأفكار العصية أو الدغمائية عكس الدول المتقدمة والمتحضرة التي تجد فيها جوا فكريا وثقافيا متفتحا ومتسامحا يسوده الروح العقلانية النابعة من التفكير العلمي الذي يسيطر ويكتنف كل المجالات الحيوية في أي مجتمع.

فالهدف الرئيسي إذن للفلسفة حسب شريط هو فهمها للواقع والبحث في مشاكله والتطلع للحلول التي تجعل منه مجتمعا متطورا منطلقا من الرؤية الواقعية العينية للأمور، وفي هذا استمد طرحه من الواقعية الاجتماعية الخلدونية. فكيف ذلك؟

ثانيا ـ مشكلة الإيديولوجيا وقضايا التنمية في فكر شريط:

لا شك أن عبد الله شريط واكب ثلاث مراحل مختلفة من تاريخ الجزائر، أولها مرحلة الاستعمار والثورة، والثانية هي مرحلة الدولة الاشتراكية بعد الاستقلال، والثالثة هي مرحلة الانفتاح السياسي والتعددية، ومن منطلق أن أغلب إنتاجاته الفكرية صدرت في

1- شريط عبد الله، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،1981، ص-05.

المرحلة الثانية، أي في المرحلة الاشتراكية، فإلى أي مدى يمكن أن نلمس مسحة إيديولوجية في فكر عبد الله شريط؟

قبل أن نعرف ذلك نود أن نحدد مفهوم الإيديولوجيا، فهي كما ورد في إحدى الموسوعات الفلسفية" نسق من الأفكار السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية.[1]

إذا كان هذا هو المفهوم العام للإيديولوجيا، فما هو مفهومها عند عبد الله شريط؟ وهل كان لفكر شريط طابعا إيديولوجيا؟

كما هو معلوم، فقد صدر لشريط عن ديوان المطبوعات الجامعية سنة 1981 كتابا بعنوان "المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية"، كما صدر له أيضا سنة 1986عن المؤسسة الوطنية للكتاب عملا آخر بعنوان "مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي" ولا شك أن من يطلع على أعمال بمثل هذه العناوين سيقع في مفترق طريقين للحكم على فكر عبد الله شريط وهما: إما أن يكون فكره فكرا إيديولوجيا، وإما أن يكون ناقدا للإيديولوجيا، والفصل في هذا الأمر يتطلب قراءة هذين العملين أكثر من مرة مع ربط هذه القراءة بالإطار الزماني والمكاني الذي أنتجت فيه هذه الأعمال.

إن عبد الله شريط في معرض حديثه عن مفهوم الإيديولوجيا يقول:" لا نستطيع أن نفكر تفكير المجتمعات الصناعية إذا كنا نعيش في طور حضاري متخلف، كما لا نستطيع أن نتوقع اليوم تفكير أهل القرن الواحد والعشرين. وهكذا، ويقول أيضـــا " إن شعوب العالم الثالث التي لا تشبع خبزا، لا يمكنها أن تفكر بنفس الطريقة والاهتمامات التي تفكر بها الشعوب المتطورة المتبذخة، ومن ثم فهي لا تستطيع أن تتبنى إيديولوجيات هذا العالم، وما نفهمه من هذا أن التباين الكبير على المستوى المادي الاقتصادي والتكنولوجي بين الدول المتقدمة سواء أكانت ليبرالية أو اشتراكية لا يسمح بأن تكون طريقة التفكير واحدة بينهما.[2]

ومعنى ذلك أيضا أنه لا يمكن للشعوب المتخلفة أن تستورد أفكارا جاهزة وتحاول تطبيقها على واقعها دون دراسة لما يترتب عليها من نتائج قد تكون كارثية عليها، وكأن شريط هنا يتنبأ بفشل تجربة بناء الدولة الاشتراكية في الجزائر، وذلك نظرا لاختلاف طبيعة المجتمع الجزائري عن المجتمعات الأوروبية والأسيوية التي تبنت المنهج الاشتراكي من حيث العقيدة والقيم الاجتماعية والأخلاقية، وهو يقول في هذا

1- روزنتال ويودين، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، مراجعة صادق جلال العظم وجورج طرابيش، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط5، 1985،ص 68.

2- شريط عبد الله، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية- المرجع السابق- ص28-29

المجال: " إن أبنا ء كل مجتمع لا يهضمون إلا بصعوبة وبعد صدام طويل بنيات عقائدية وردت من مجتمعات مغايرة[1]، وهذا يعني أنه من المستحيل على بلدان العالم الثالث ومن ضمنها الجزائر أن تتبنى إيديولوجية أخرى سواء أكانت غربية(ليبرالية) أو شرقية (اشتراكية) نظرا لاختلاف الشروط الموضوعية والإنسانية بين المجتمعات.

وقد وجه عبد الله شريط نقدا شديدا للإيديولوجية الاشتراكية في كتابه " مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر" انطلاقا من تساؤل مهم: هل يكفي أن يقرر الحزب سياسة ما لكي تتبناها الدولة وتنفذها؟[2]، ويردف قائلا: إجابة عن هذا السؤال: إن الحزب يقرر أن يساهم المناضلون(أعضاء الحزب) في مؤسسات الدولة وخاصة في مناصب السلطة والنفوذ، ويشترط أن يكون رئيس الدولة من الحزب، وكذلك الوزراء والنواب حتى يكونوا كلهم حراسا على تطبيق سياسة الحزب "، ولكن عبد الله شريط يرى أن الواقع هو عكس ذلك تماما، وهذا الذي يفسر فشل التجربة الاشتراكية لا في الجزائر فحسب، بل في كل العالم، وهذا ما أدى إلى انهيار المعسكر الاشتراكي في ظرف أقل من 70 سنة، ويبرر عبد الله شريط ذلك بقوله: " أن انحراف سياسة الحزب يبقى قائما في التطبيق، وذلك لسببين رئيسيين:

الأول أن الأغلبية من إطارات الدولة تنتمي غالبا إلى الطبقة البرجوازية، فلا تتحسس لحاجات الشعب الحقيقية العميقة بقدر ما تتحسس لحاجاتها والسبب الثاني، إن إطارات الإدارة حتى ولو كانت تنتمي إلى الطبقة الشعبية في أصلها، إلا أنها عندما تدخل محيط الإدارة وتتأثر بامتيازاتها، كثيرا ما تنسى أصلها الشعبي، وتتحول إلى ما يسمى بالبرجوازية الجديدة وينشأ عن ذلك أن تكبر طبقة البيروقراطيين بجيش من الموظفين يعيشون عالة على ما تنتجه طبقة العمال والفلاحين دون أن تساهم بشيء يذكر في عملية الإنتاج الكبرى.

وبالفعل فإن هذا ما تمت ملاحظته من خلال التجربة الاشتراكية في الجزائر، حيث انتشرت مظاهر اجتماعية سيئة منافية للقيم الأخلاقية من جهة، ومتعارضة مع القيم التي توارثها الشعب الجزائري من جهة أخرى، ومن أهم هذه المظاهر السيئة الرشوة المحسوبية الانتهازية سوء التسيير اللامبالاة بشؤون المواطنين، ونهب المال العام...وهي مظاهر لم تستطع الجزائر التخلص منها لحد الآن رغم مرورها إلى نمط ومنهج سياسي واجتماعي آخر يعتمد على الانفتاح والتعددية.

1- شريط، عبد الله، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية- المصدر السابق- ص ص- 23-24

2- شريط عبدالله، مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص-211.

كل هذا معناه أن معركة تحرير الإنسان الجزائري لم تصل بعد إلى غايتها النهائية، حيث يقول عبد الله شريط:" الخلاصة التي نخرج بها من هذا التحليل هي أن الإنسان الجزائري لا نستطيع ولم نستطع بعد أن نحرره بواسطة تحرير البلاد من الاستعمار الأجنبي لأن هناك حاجزا يبقى قائما ويلعب نفس الدور في عرقلة تحرير الإنسان من الاستغلال ونعني بها البيروقراطية الإدارية والاقتصادية، وقد عبر عبد الله شريط عن خيبة أمله من فشل المشروع الاشتراكي في الجزائر قائلا:

" إن المبدأ الوحيد الذي يبرر الحزب الواحد، في النظام الاشتراكي هو أن يمارس النقد الذاتي السلوكي وإذا انعدم ذلك، فإنه لا تكون له إلا عاقبة واحدة ليست حتما هي الديمقراطية والالتزام والمصلحة العامة[1]، وقد أرجع عبد الله شريط فشل الإيديولوجيا الاشتراكية في الجزائر إلى عدة أسباب تتمثل خاصة في عدم تهيء الشعب الجزائري من إطارات وعمال وفلاحين لهذه الإيديولوجيا، مما تترتب عليها سلوكات سلبية في التسيير والعمل مثل التبذير واللامبالاة والتغيب عن العمل، وذلك لأن هذه الإيديولوجيا تتعارض في كثير من قيمها مع معتقدات وقيم وعادات الشعب الجزائري، فكانت نتيجتها كنتيجة عمل من يزرع نباتا في بيئة ومناخ غير مناسبة له، ويعود كذلك إلى النقص في الوعي والتوجيه السياسي، حيث أصبح المسؤولون يتصرفون في شؤون الدولة والاقتصاد كما وينادون بالاشتراكية ولا يؤمنون بها وهذه المساحة الشاسعة بين القول والفعل هي التي أدت بالجزائر إلى الكارثة على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والأخلاقية وحتى الأمنية.

وعلى ضوء ما سبق نلاحظ أن عبد الله شريط كما يقول محمد مجاود في مقالة نشرت له في مجلة خاصة بالندوة التكريمية العلمية حول أعمال عبد الله شريط الفكرية والفلسفية بجامعة منتوري سنة 2004 بقسنطينة تحت عنوان "المسألة الأيدلوجية في فكر عبد الله شريط" حيث يقول[2]: " إن قراءة كتابات عبد الله شريط جعلتني أكتشف مرة أخرى مدى أصالة فكره المتشبع بالثقافة العربية الإسلامية، والمتفتح على الفكر العالمي المعاصر، ويضيف قائلا: " لم يكن(عبد الله شريط) ماركسيا في تحليله وتفكيره بالرغم من أنه استعاب كل ما أنتجته النظرية الماركسية في هذا الميدان.

ولكن مع ذلك لا يمكن نفي وجود بعد إيديولوجي في فكر عبد الله شريط كما يرى الباحث مجاود في مقالته السابقة الذكر، حيث يقول: " بقيت أعمال عبد الله شريط تسير

1-شريط عبد الله، مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر- المصدر السابق، ص- 289.
2- مقالة للدكتور مجاود، محـــمد: "المسألة الإيديولوجية في فكر عبد الله شريط"، من أعمال الدكتور عبد الله شريط الفكرية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة، مطبعة عين الباي ،2007، ص ص- 154- 155.

في تلك المنظومة الأيديولوجية السائدة في المجتمع في فترة السبعينات وبداية الثمانينات[1] ويواصل قائلا: يلاحظ أن الدكتور شريط بقي منحصرا بين الأيديولوجيا النظرية والتطبيقية وما انجر عنه من عدم التطابق بين الخطاب السياسي الإيديولوجي والواقع المعاش في الجزائر، ولكن هذا لا ينف أنعبد الله شريط حاول كل ما في وسعه من أجل تقديم صورة نقدية ذاتية للإيديولوجيا السياسية التي سادت في الجزائر مدة من الزمن رغم أنه كان أحد المنظرين لهذه الإيديولوجيا من خلال موقفه الفكري في الجزائر في تلك الفترة.

عندما تطرق شريط لموضوع التنمية ربطه دائما بالسؤال الأخلاقي لأن قيمة الأخلاق في المجتمع أكبر لتحقيق الوثبة الكبرى وهذا طبعا بالاهتمام بحياة الإنسان الروحية والمادية على السواء مثل مشكلة القيم، الحرية، أنظمة الحكم والأسرة والتربية، بحيث لم يتوان أن يحدد موقفه منها لتوظيف الحياة الأخلاقية للدفع بعملية التنمية قدما نحو رفاهية المجتمع، شرط أن يكون خاضعا للرقابة الأخلاقية، أما بخصوص رجل الدين فهو في نظره مطالب بالدفع بدواليب التنمية قدما وهذا لن يتأسس إلا عندما ينظر إلى المسجد كفضاء لإنتاج الخطابات الدينية فقط، بل لتصدير الأفكار التقدمية وطرحه من جانبه المنفتح المرن أمام تعقد الواقع المعاش.

المبحث الثاني: القيم العملية والنظرية في فكر عبد الله شريط:

إن البحث في المسألة الأخلاقية بالنسبة للأوساط الثقافية والفلسفية في الجزائر لم يكن إلا نتيجة طبيعية وحتمية وكارتباط في أن واحد مع العالم العربي من خلال إثارة بعض المفكرين لمسألة الأخلاق وما دار حولها بعد من نقاش بين علماء الدين من جهة وبين النخبة المثقفة في وطننا العربي من جهة أخرى.

ولقد تباينت الرؤى الفلسفية في هذا الطرح وتعددت الأفكار المؤيدة والرافضة لهذا النوع من البحث، لأن الثقافة الإسلامية عموما والعربية على وجه الخصوص ظلت إلى فترة قريبة تسيطر عليها الذهنية الدينية العقدية المعتبرة أن الدين وجد كاملا والأخلاق جزء لا ينفك عن هذه المنظومة المتكاملة ، بل إن الإسلام هو الأخلاق في حد ذاته ولا مبرر إذن من إعادة البحث وإيجاد فلسفة تؤصل وتؤسس لأخلاق عقلانية جديدة.

ومهما يكن من نقاش حول هذه المسألة، فإنه من الواضح أن السؤال الفلسفي الأخلاقي في العالم العربي بدأ يبرز حسب عبد الحليم عطية على يد البعثات العلمية التي

1- مقالة للدكتور مجاود، محمـــد: "المسألة الإيديولوجية في فكر عبد الله شريط"، من أعمال الدكتور عبد الله شريط الفكرية والفلسفية -المرجع السابق، ص ص 159-163.

تكونت في الغرب وفي الجامعات والمعاهد الغربية في فترة الثلاثينات والأربعينات، وحاولت نقل هذه التجربة العلمية إلى أوطانها، وما تجدر الإشارة إليه أن الجزائر في تلك الفترة لم تكن عضوا فاعلا في هذه العملية بسبب الاستعمار الفرنسي، إذ كانت تحاول إثبات هويتها أولا والحفاظ عليها من الطمس والتزييف، ثم إيجاد لنفسها حلولا عملية ومبادئ سياسية واجتماعية تدافع بها عن وجودها والبحث وفقها عن استقلالها، فالمفكرين العرب بعد تلك الفترة تركزت جهودهم حول محاولة الاستقلال الفعلي عن التوظيف الديني الكلاسيكي مثلما فعل المفكر "لطفي السيد" في ترجمته لكتاب أرسطو "الأخلاق إلى نيقوماخوس" من اللغة الفرنسية، بحيث أوجد له مقدمة تختلف عن قراءة المسلمين الأوائل له مثل الفارابي أو مسكويه أو غيرهم، لأن قراءتهم كانت تصب في محاولة التوفيق بين الدين والحكمة عكس نظرة لطفي السيد الذي قرأ أرسطو في ظل التقدم العلمي والفلسفي الأوروبي الحديث، أو بعبارة أكثر وضوح وهي التأكيد على استقلالية الأخلاق عن الدين.

وبالتالي وحسب هذا الطرح فإنه من البديهي أن الطرح الغربي قد حسم في مسألة ربط الفلسفة بالأخلاق والعقل، وأصبح هذا الأمر واقعا وعمليا وأضحى بذلك المجال مفتوحا للخيارات والأطروحات الفلسفية في هذا الإطار كمسألة الوجود والحرية وكذا سؤال الهوية القومية، أو ما يعرف بالهوية الإسلامية. كل هذه القضايا أثيرت في الفكر الأخلاقي العربي، ونحن في هذا نعترف بالتجربة الغربية التي نبهت مفكرينا للتطرق إلى مثل هذه القضايا، ومن هنا فمسألة الأخلاق التجريدية الميتافيزيقية التي استوحت من العقيدة الدينية، والتي لم تصل إلى مبتغى تطلعات المجتمع في غالب الظن، لذا وجب إيجاد رؤية وفلسفة جديدة تجعل من الخط العملي منهاجا يفضي بنا للوصول إلى نتائج عملية حقيقية.

أولا: القيم النظرية في فكر عبد الله شريط :

إن السياق النظري الذي يتمركز أو يتموقع فيه الأستاذ " شريط " هو ما يسمى بالواقعية ولذا نرى أن النزعة المنهجية قد طبعت أعمـاله والبعض من كتاباته على غرار ما يقوله في تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب عن كيفية قراءة النص الأدبي، لذا من الواضح أنه لا يكفي لكي نفهم قطعة أدبية أن نفهم ألفاظها ومعانيها فقط ، بل لا بد أن نلم بظروفها التي قيلت فيها وبالحالة الاجتماعية التي كان يعيش فيها قائلا وبالظروف النفسية والفكرية التي كان عليها عند إنتاجه[1].

1– بوقاف عبد الرحمن،" المسألة الثقافية عند عبد الله شريط"، – أعمال الدكتور عبد الله شريط الفكرية والفلسفية، ص– 22.

هذا القول فيما يخص العمل الأدبي، والطريقة نفسها يشرعها شريط لقراءة السلوك والفعل الأخلاقي، أقصد الفكر والأحكام الأخلاقية التي تؤسس لنا لعملية السلوك لدى الفرد، لأن طرح شريط يتفق كثيرا حسب رأيي مع فكر الألماني هيغل ولو من الناحية الشكلية على أقل تقدير عند ما يقول الفيلسوف الألماني هيغل أن التصور العقلي هو بداية العمل الحقيقي والحديث المتماثل مع هذا الفكر نجده في مقدمة كتاب "معركة المفاهيم " لا نستطيع أن نبني بيتا من الحجر إلا إذا سبقه بيت من أفكار ونحن لا نملك شيئا عنه في تصوراتنا الذهنية[1]، وكلام من هذا القبيل يعني أن إنتاج الفكرة أو المفهوم هو الأساس، ولكن الفكرة بدون الإسراع في تجسيدها فراغ، لذا فإن ابن خلدون وحسب قراءة عبدا الله شريط قد فهم المسألة جيدا، لذا فإن فكره يعتبر نموذجا وقدوة ،وأن شخصيته مهمة في تراثنا يجب تدريسها وتلقينها للأجيال الصاعدة، لأنه ببساطة الفكر الخلدوني فهم الإنسان ضمن إطاره الزماني والمكاني، أي في نطاق ظروفها المادية أو كما يسميها "المعايشة".

فإنسان ابن خلدون هو إنسان مرتبط بالأرض وبالخبز اليومي وبالعادات التي يقدمها له مجتمعه ويقيده بها ويضبط تصرفاته بقوانينها، أي أن الإنسان الخلدوني يختلف عن الإنسان السينوي (نسبة إلى ابن سينا)، كما يختلف عن إنسان الفارابي الذي أوصى به من خلال بناء دولته الفاضلة المتأثرة بمدينة أفلاطون المثالية، وبذلك حتى إنسان أفلاطون لا يتطابق مع رؤية ابن خلدون لهذا الإنسان، لأننا هنا نحن أمام واقع يتعارض مع الحلم ومع النظرة التي تنظر للإنسان برؤية مزدوجة، بل تكاد تكون متناقضة، أي تخلط بين إنساننا الذهني الذي يتبنى أفكارا مثالية متعالية على الواقع من الصعب تحقيقها وبين إنساننا الواقعي الذي يعيش ظروفا معينة تكاد تكون قاهرة، بل قد تكون كما يرى شريط "من أكبر الأسباب في ضعف التأثير الأخلاقي في الإنسان الواقعي وإن كان هذا الإنسان قد كتب له التقدم في ميادين أخرى خاصة في المرحلة الحديثة.

لكن هذا التطور لم يكن بالمنزلة نفسها فيما يخص مجال الأخلاق حسب مايراه شريط، وقبل ذلك في فكر ابن خلدون أنها لم تكن متلونة بالطابع العملي الواقعي، وربما هذا العامل يعد الأبرز " في جعل المعركة اليوم تجري على قدم وساق بين دعاة إدخال الفكر العلمي إلى الأخلاق ودعاة إبقاء الأخلاق في ميادين الفلسفة، بحجة أن الأخلاق لا تبحث عن ما هو واقع وتحلله، بل تبحث فيما يجب أن نصير إليه ونحققه وهذا البحث ممتنع عن العلم[2].

1- معيرش موسى، الفكر الإسلامي في المغرب العربي – المرجع السابق ، ص- 76.
2-شريط عبد الله، الفكر الأخلاقي عند عبد الرحمن ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1981، ص-07.

ومهما يكن فإن الغرض من دراسة الأخلاق حسب شريط هو من أجل إدخالها إلى الفكر العلمي وجعلها متعايشة مع حياتنا الاجتماعية، ومن ثم إخراجها من الأسلوب البدائي المعتمد على الوعظ وإسداء النصح والافتخار بالماضي، وبالتالي تحرير عاداتنا الفكرية من كل التحاليل المعطلة الحائلة دون الانطلاقة الموضوعية والعلمية والواقعية لبناء أخلاق عملية.

معالم الفلسفة الخلدونية الاجتماعية في فكر شريط:

من خلال قراءتنا الأولية لفكر شريط يجب أن نعترف بأن رؤيته لفلسفة ابن خلدون هي رؤية تتميز بالإبداع والجدة، وهذا ما أوضحه الأستاذ حمودة سعيدي من خلال إحدى مقالاته في الندوة التكريمية التي أقيمت حول أعمال شريط الفكرية والفلسفية في جامعة منتوري بقسنطينة يومي19و20 ماي 2004 حيث قال: " أن الفلسفة الاجتماعية الخلدونية عند عبد الله شريط هي محاولة نقدية إبداعية تعبر عن ذاتية وأصالة وأية ثقافة وحضارة، فهي موقف من سائر الفلسفات النافذة في صنع المصير الإنساني، وخاصة منها الفلسفات العربية المعاصرة المنحرفة والمنسلخة عن التواصل التاريخي العربي الإسلامي[1].

ومن هنا فطبيعة الإبداع والنهج الجديد الذي اتسمت به فلسفة شريط من خلال قراءته لفكر ابن خلدون يعني أنه حسب المفكر الجزائري عبد الله شريط من غير المقبول أن نأتي بفلسفة جاهزة نعربها ونحاول من خلالها أن نجد الحلول لمشاكلنا ومتاعبنا التي نواجهها اليوم في حياتنا، لذا فعدم جدوى هكذا حلول هو الذي جعل المفكر شريط يجتهد في رسم" معالم الفلسفة الاجتماعية الخلدونية المعاصرة - وفق رؤية معاصرة - وكد في تحديد اتجاهها وتسييج مشكلاتها، ليعبر من خلالها عن معاناة اجتماعية حقيقية أبدع فيها إبداعا تمخض عن تأملات ومنظورات وأفاق ترتبط بديناميكية المجتمع العربي والإسلامي عموما، والجزائري خصوصا وبسيرهما في التاريخ".

لقد حاول عبد الله شريط من خلال فلسفته إنتاج تأملات ومنظورات وأفاق تحقق النهضة والتنمية من دون أن تكون هذه الفلسفة منضوية داخل ما يعرف بفلسفة الأنساق، أي الأنساق الفلسفية التي تدعي الشمولية والكمال، بل نريد حسبه - شريط - البحث عن مجموعة الأساليب والمناهج التي تمكنه من تطويع السلوكيات البشرية سواء كانت سياسية

1- سعيدي حمودة، معالم الفلسفة الخلدونية الاجتماعية عند عبد الله شريط، الندوة التكريمية العلمية، ص-101.

أو أخلاقية أو ثقافية أو تربوية وإخضاعها للدراسة العلمية، لأن " سلوك الإنسان تنظمه قوانين علمية يمكن اكتشافها ثم تسخيرها لفائدة الإنسان[1].

فهذا الاكتشاف للسلوك الإنساني من شأنه أن يقنن تصرفاته ويسيج مشكلاته الراهنة فالبحث عن مشكلات الإنسان الراهن يعني أن المجتمع العربي عموما في فترة ما كان يعيش في كنف حضارة راقية وهو الآن باجتهاده يحاول أن يعود إلى تلك القيم الماضية، وهي القيم التي كانت تعبر عن حضارته السابقة التي لم تكن أقل من مستوى حضارات الأمم الأخرى ولكن الأهم من هذا كله هو البحث عن الأساليب والمناهج التي تساعدنا على هذه العودة هذا من جهة، ومن جهة أخرى كيفية تجاوز أزمات التخلف، وهذا الأمر بطبيعة الحال سينطلق من البنية الاجتماعية ككل وعن طريق ارتباط فكري عميق قصد الوصول إلى حل متماسك بين الفكر والتطور الاجتماعي وبصورة أخرى هو" إيجاد مكانة للفلسفة الاجتماعية في فكرنا العربي المعاصر[2].

وهذا ما حاول شريط به دراسة المجتمع الجزائري ضمن سياق وإطار معالم الفكر الخلدوني الاجتماعي العملي مادام أن مجتمعنا الجزائري والعربي بصفة عامة قد فقد هويته وحضارته مع نهاية الدولة الموحدية وأصبح يعيش الهوة بينه وبين المجتمعات المتحضرة، لذا يقر شريط أن هذه الحالة لن تكون حالة ساكنة وأبدية وليست مصيرا محتوما لأن المجتمع يتسم بالديناميكية والوتيرة المتحركة بطبعه، لذا نرى حسب شريط كذلك أن النهج الخلدوني مؤثر وإيجابي في تعديل أمورنا لأنه أولا يكون إرثنا الحضاري الإسلامي، وثانيا مشروعيته وكفاءته العلمية وهذا بشهادة الغرب قبلنا. ومن هنا يمكن القول أن أعمال شريط تعتمد على النهج الواقعي في الفلسفة الاجتماعية.

ثانيا: القيم العملية عند عبد الله شريط:

إن القارئ لأعمال عبد الله شريط يستنتج أن بعض أفكاره كانت أفكارا ثورية مادام أنها اتجهت إلى العامل الذاتي لكل مفكر وانتقاء نفسية كل باحث في أي مجال كان، والعودة إلى النفس تذكرنا بمقولة سقراط الشهيرة "أعرف نفسك بنفسك، " أو عبارة ابن باجة " أصلح نفسك بنفسك" وكلها دعوة إلى إصلاح الذات ومن ثم المجتمع.

وعليه ففلسفة شريط بهذا المعنى هي فلسفة ثورية بامتياز، فالروح الثورية والتكوين الثوري أو التفكير الثوري كلها خصائص ومبادئ يجب أن يستند عليها الفيلسوف في انتقاد مجتمعه وثورته عليه وضد قيمه المعرقلة والمعطلة لحركة الفكر

1 – شريط عبد الله، الفكر الأخلاقي عند عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق– ص–05.
2– سعيدي حمودة، معالم الفلسفة الخلدونية الاجتماعية عند عبد الله شريط ، المرجع السابق، ص– 102.

والتطور فيه، وفي هذا الإطار وجه شريط الانتباه إلى مسألة اللغة العربية وطريقة تدريسها أو المثاقفة بها، لذا يتوجب على المعلمين والباحثين في هذا المجال أن يثوروا على أنفسهم أعني - يقول شريط - أن يراجعوا كل الأساليب التي تعلموا بها هم العربية، وأن لا يطبقوها في تعليم العربية لأبناء اليوم، وهذه الثورة لا تكون إلا برفع المستوى الثقافي العام، لا في العربية والتخلص من أساليب عصور الانحطاط فقط[1]،وإعادة الأهمية للغة العربية حسبه هو نتيجة مبدئية للقراءة الصحيحة لثقافتنا الجزائرية والعربية وبالتالي إعادة النظر في أدوات بحثنا وتفكيرنا حتى نستطيع أن نصحح الآراء والنظريات القائلة بعجز اللغة في مسايرة التطور الحاصل في العالم ونكشف من خلالها أن الخطأ ليس في العربية، وإنما الخلل يكمن في الناطقين بها ومستعمليها.

لذا علينا جميعا حسب المفكر شريط أن نصحح مفاهيمنا حولها ونبذل الجهد للدفاع عنها ورفع الشبهة من حولها والقائلة بتخلفها وعجزها ومحدوديتها، لذا فاتهامها بهذه الأغاليط في حقيقة الأمر هو اتهام موجه إلينا نحن أصحاب هذه اللغة، وأن دفاعنا عن اللغة العربية بأنها لغة العلم والتطور هو أيضا دفاع عن أنفسنا نخفي وراءه عجزنا عن تطوير لغتنا فكل هذا التفكير من قبل المفكر شريط هو إجراء عملي واضح يحاول من خلاله أن يرفع المستوى الثقافي في مجالات عدة كعلم النفس أو التربية والتاريخ والأدب، أو حتى اللغة الأجنبية قصد فهم ثقافة الآخر وطريقة تفكيره، ومن هنا يكون عبد الله شريط قد وجه الرأي الخاص (النخبة)، والرأي العام إلى أهمية الجانب العملي في كل شيء وهو الجانب الذي يتجسد في سلوك الفرد والمجتمع ككل.

إن فلسفة عبد الله شريط كما يرى الدكتور صايم عبد الحكيم في إحدى مقالاته »نظرة أصلية للواقع ودعوة ملحة للتغيير، تعي عوائق نفوذها في المجتمع[2]، ومعلوم أن المثقف يصعب عليه إن لم يكن الأمر مستحيلا بالنسبة له خاصة - في مجتمع تسيطر عليه الأمية - إقناعه بوجود علاقة بين الخبز والكتاب أو العلاقة بين الكتاب والتلفاز، والمثال الذي يسوقه شريط على هذه القضية في كتابه معركة المفاهيم دليل على ذلك ودليل أيضا على قصور تفكير بعض شبابنا، يقول في إحدى حواراته: " إن السخرية أيضا كنز يستخرج من الكتب، وقد تبين لي من قبل اليوم وتأكد لدي اليوم أننا نعيش في مجتمع يحتقر الكتاب ولا يحترم الثقافة.[3]

1- شريط عبد الله، من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ،1990، ص ص- 10، 11.

2- صايم عبد الحكيم، أستاذ بجامعة وهران، مقال نشره بعنوان "سؤال الأخلاق في فكر عبد الله شريط"، جريدة نيوز (08مارس).

3- شريط عبد الله، معركة المفاهيم، المصدر السابق- ص- 49.

فالمسألة ليست بالبساطة التي نتوقعها، فأنت أمام مجتمع حسب شريط لا يفقه شيء، بل يزدري ويستخف بكبار الأمور إن التلفزيون الذي ينسيك أنت عشاء أولادك حتى يناموا بدون عشاء لا يتغذى إلا من الكتاب، فالفيلم الذي تتفرجين عليه ـ المرأة المحاورة ـ والرواية التي تشبعك ضحكا أو تغرورق لها عيناك بالدموع هي كلها كتب، ولو لم يتعب في سبيلها أصحابها ولو لم يقرؤوا الكتب لما استطاعوا أن يكتبوها".

ومن هنا فعدم ربط الأفكار بالواقع مشكلة رئيسة تدل على عدم تطور الوعي العملي كما تدل على سيادة المعطلات الخرافية والانفعالية، ومن ثم يضحى هذا الشعب يعيش حالة الاغتراب، فتفكير الأستاذ شريط يجعلنا نصنفه بأنه مثقف شعب كما أطلق عليه البعض هذا اللقب، لأن القول وإن كثر لن يقوم أو يعوض مقام العمل إلا، ومعنى هذا أن فلسفة ابن خلدون ذات الصبغة العملية أوحت لشريط النهج البراغماتي إن صح التعبير، ومن هنا كانت الأخلاق الخلدونية أخلاقا عملية كما وضح ذلك في أطروحته في الدكتوراه "فلسفة ابن خلدون العملية".

ومن خلالها استنتج أن الإنسان العربي الذي وجهه ابن خلدون وحاول إصلاح ذهنيته منذ سبعة قرون هي الشخصية ذاتها وتواجه المشكل ذاته وهو مشكل القول دون الفعل، وإنما الذي أغفل عنا هذه الصورة أو الرؤية هو الإنسان الغربي، فشرعنا نأخذ منه كل شيء، وخاصة الأشياء المادية، فالخطأ إذا استوردنا مصنعا جاهزا أو آلة جاهزة، ولم ننتبه إلى أخذ الفكرة التي أنتجت هذا المنتج، وعندما نقول الفكرة فنحن نقصد صنع الإنسان والاستثمار فيه وفي قدراته ومؤهلاته، لذا فلنتيقن أن" تشغيل الآلة ليس أعقد من تشغيل الآدميين[1]فالخطأ كل الخطأ أن نأتي بآلة متطورة ونضعها في يد متخلفة، وبالعودة إلى مسألة اللغة نقول أن موقف شريط هذا من اللغة العربية كان نتيجة للسجال الفكري الذي ربطه مع شخصية مصطفى الأشرف الذي قدم اللغة الفرنسية على اللغة العربية، والأمر الذي تجدر الإشارة إليه هو أن اهتمام شريط باللغة كذلك إضافة إلى اتصافها أمام فكر الأشرف إن صح القول هو أن تعلمها ليس لذاتها، بل لغاية أسمى وأوسع من ذلك، لذا نجده يقول في كتابه من واقع الثقافة الجزائرية "أن اللغة بالنسبة لهذا العلم ـ هي كما يقول ابن خلدون- ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي أداة لغيرها من العلوم[2].

1- شريط عبد الله، الفكر الأخلاقي عند عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق- ص- 06.
2-شريط عبد الله- من واقع الثقافة الجزائرية، المصدر السابق- ص- 14.

المبحث الثالث: معركة المفاهيم (شريط عبد الله)

تعتبر مسألة المفاهيم من أهم المسائل التي أحدث الفكر الفلسفي نحوها جدلا كبيرا في كل مرحلة من مراحله، وقد " مثلت في الفكر العربي هاجزا ثابتا من الهواجز التي تدفع بالفكر دفعا للبحث والابتكار والمغامرة في الفضاءات الصعبة والغامضة، فالمفهوم ابن وفي لبيئته ولمناخه و لحضارته، يختزل الفكر و العصر والزمن ويعطي للتواصل دلالة واضحة ومحددة ومنظمة"[1]، ولم يكن الفكر الجزائري ضمن الفكر العربي بعيدا عن هذا الجدل أي جدل المفاهيم أو اقل اهتماما به، ولعل من بين الذين برزوا في هذه القضية في الجزائرهو المفكر عبد الله شريط الذي كان من بين أكثر المشتغلين بها لأنها في نظره "ليست قضية مهمة فحسب بل هي قضية تستحق أن يخوض الإنسان من اجلها معركة حقيقية لأن الكثير منها ضاع واختلط في وسط الزحام والاختناق مما تطلب إعادة فرزه و تصحيحه، وهذا ما دفعه للدخول في مناقشات وحوارات مختلفة مع مثقفين جزائرين أمثال مصطفى الأشرف"[2]، كما يعود اهتمامه بها كذلك كما يرى محمود قاسم " تماشيا مع الأوضاع السياسية وتطور المجتمع الجزائري بقوله إن معركة المفاهيم بالجزائر قد بلغت الذروة في حدتها و لن تجد جزائري يحدثك قليلا من الوقت حتى ينقلك إلى صميم المعركة "، و بالإضافة إلى هذا فإن اهتمامه أيضا بهذه القضية يرجع إلى كونه " رأى بأن الجزائري دوما يتجه وفي كثير من الأحيان إلى العمل دون تصور مسبق وفكر موجه[3] ،أي انه لا يولي اهتمام للمفهوم وقيمته في التخطيط للعمل، فهذه النقطة بلذات التي يعرضها في مقدمة كتابه هذا قائلا " إننا لا نستطيع أن نبني بيتا من حجر إلا إذا سبقه بيت من أفكار"، أي إلا إذا كنا نملك شيء عنه في تصوراتنا الذهنية ولهذا السبب نجده يحرص" على إبراز قيمة المفاهيم في حياتنا العلمية والثقافية والسياسية عموما، وخصص نفسه لمعركة الثقافة بهدف إعداد جيل من المثقفين إذ يقول في هذا السياق " إنها معركة أشد خطرا من معركة تحرير الوطن من المستعمرين، إذن هي معركة المفاهيم التي يجب أن ينتصر فيها الشعب الجزائري ليعمق بها خير ما حواه ماضيها، ولكي يصل هذا الماضي بمستقبل أفضل من حاضر مضطرب متناقض " ، كما يشير كذلك " بأن تحقيق هذا المستقبل الأفضل لا يكون بالتقهقر والتشبث بمفاهيم وقيم لم تعد تصلح لا للحاضر و لا للمستقبل كما يضن بعض أنصاف المثقفين بل بالجمع بين خير

1- ازاد أحمد علي وأخرون، الفكر الاجتماعي الخلدوني:المنهج والمفاهيم والازمة المعرفية،مركز دراسات الوحدة العربية 2004، لبنان، ط 1- ص 71

2- كاتب ومؤرخ وعالم اجتماع جزائري ينحدر من عرش الغداورة بالمدية،إلتحق بالثورة الجزائرية منذ السنة الأولى سنة 1956،كما اشتغل وزير في التربية من مواليد1917/07/03.

3- معيرش موسى، الفكر الإسلامي في المغرب العربي، المرجع سابق، ص 75-76.

المفاهيم في تراثنا العربي والإسلامي وبين أفضل عناصر الثقافة و الفكر الحديث "[1]، وبالتالي فما يمكن أن نفهمه من خلال هذا التصورهو أن عبد الله شريط يرى بأن بناء المستقبل لا يكون من زاوية واحدة أي لا نكون مجددين بشكل خالص ونضع قطيعة مع الماضي أو العكس، فلا بد من العودة إلى الماضي واستقاء منه جملة المفاهيم الصالحة وإعادة صياغتها التي ستكون في النهاية هي أسباب للحضارة و العصرنة ودمجها مع أشكال الحداثة، وهذا الإلحاح على قضية المفاهيم كله راجع إلى" رغبته في إثارة حفيظة بعض ذوي الثقافة السلبية و إيقاضهم، أصحاب الثقافة التي ترتكز على مفاهيم عصور الانحطاط و التدهور"، ولعل من جملة المفاهيم التي نجدها قد درسها وناقشها مع تقديم في البداية ملاحظة لطبيعة هذه الدراسة بأنها كانت متميزة عن الدراسات الأخرى، أي أن عودته للمفهوم ودراسته له لم تكن من الناحية اللغوية أو المعرفية وإنما اتجهت إلى البحث في مجالات استخداماته، وقد يرجع هذا لطبيعة تكوينه ومن هذه المفاهيم التي حللها نجد:

أولا ـ المعركة بين الشهوة والقانون:

يقول في هذا السياق " نحن نميل بطبعنا إلى السلبيات أكثر من الإقبال على الايجابيات وعندما نريد أن نفكر ننصرف إلى الانتقاد إلى انتقاد غيرنا طبعا وتحميله المسؤولية فيما نعانيه، السلبية هي أن لا افعل شيئا وان فعلته فهو تهديم ما بناه غيري وكادت هذه العادة أن تصبح مرضا مزمنا عندنا مع مرور السنين والأجيال والقرون، فالعادة تدفعك إلى العيش وفق شهوتك لا وفق القانون وشهوتك تترك لك الحرية في أن تفعل ما تشاء والقانون يضبط سلوكك ويقيد حركاتك " فلقد حاول حامورابي*[2] أن يجعلنا نعيش بالقانون فعشنا به دهرا قليلا ثم نسيناه وعدنا إلى العيش بشهوتنا ثم جاءنا محمد صلى الله عليه وسلم بدين كله قيود لشهواتنا شهواتنا في الحكم والمعاملة والأكل وأراد أن يجعلنا امة وسطا تضبط شهوتها و تسيطر عليها و تقدس القانون وتعيش به."[3]

ومزج لنا محمد صلى الله عليه وسلم بين القانون وبين المقدسات حتى نحافظ على القانون ولكن لم نكد نتعوده وينتقل صاحبه، إلى دار الأخر حتى عدنا إلى حكم شهوتنا ودسنا القانون" فكل حياتنا قضيناها شهوة أطفال فلحكم عندنا هوغنيمة وليس مسؤولية، شهوة وليس قانون وتسلط وليس تنظيم".

1- عبد الله شريط معركة المفاهيم ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط2، 1981- ص 14.

2- هوأول ملوك الإمبراطورية البابلية وسادس ملوك بابل،حكمها ما بين1792 و1750قم،كان شخصية عسكرية لها القدرة الإدارية والتنظيمية والعسكرية، وهو أول من شرع قوانين سميت نسبة إليه (قانون حامورابي) 1790 وهي قوانين مقسمة على 282 مادة يعالج فيها مشاكل الحياة وهي تنص على مبدأ و فلسفة (العين بالعين والسن بالسن).أنظر،حسين فهد،موسوعة الآثار التاريخية،دار أسامة للطباعة،عمان،ط،2003، ص245، 246.

3-عبد الله شريط، معركة المفاهيم ، المرجع سابق، ص-1.

فهذا الخلط في الفهم في مجموع التصورات والمفاهيم إذن هوسبب أزماتنا ومشاكلنا ولعل هذا ما يؤكده في كتابه منذ البداية قائلا "إن مشاكلنا وعيوبنا مردها إلى مشكلة الثقافة "فالثقافة الجزائرية في نظره هي ثقافة هجينة بعضها ورثناه من العصور الغابرة والبعض الأخر فرضته علينا أقوام بحيث يرى انه من واجب كل واحد منا أن يشعر بأننا في أمس الحاجة إلى معالجة هذا الميدان (الأخلاقي والاجتماعي) و التركيز عليه" ، نظرا لأهميته في تحقيق نهضتنا وبناء مستقبلنا وتجاوز مشاكلنا.

كما يقول " الأمة التي أنجبت حمورابي إذن و ماسينيسا وبعث فيها محمد صلى الله عليه وسلم وخلق فيها ابن خلدون وطردت الصليبين بعد قرنيين من الحروب وينتمي إليها شعب نعتز بثورته وتنظيماتها التي دامت سبع سنوات ونصف هي أمة قادرة على أن تتغلب على نفسها وتتجاوز أقدارها البائسة، لأن المعركة في أخر الأمرهي بيننا وبين أنفسنا"، وهذا ما لم يفهمه مع الأسف قادتنا، فإنهم يجهلون أمتهم و لا يقرؤون تاريخها و لا يدرسون نفسيتها ولا يحبون الاطلاع على طبائعها الاجتماعية ويأنفون التفكير ويعتبرونه مضيعة للوقت ويخلطون بين العمل والتهريج"، و"بين العظمة والتفاخر وبين القوة والتهديد وبين الصبر والتواكل والشجاعة والتهور و لا يفرقون بين التأمل والأحلام أو النقد والانتقاد وبين التسرع والسرعة" و يعتبرون أنفسهم في غير حاجة لأن يدرسوا ويثقفوا ويتعلموا ويعرفوا أنفسهم على حقيقتها وأمتهم كما هي وكما ينبغي أن تكون، ويعرفوا العالم الذي يحيط بهم وقوانين القسوة التي تحكمه"، وعليه يمكن القول بأن قضيتنا هي قضية مفاهيم فيجب علينا أن نضع كل مفهوم في إطاره المناسب وأن نعطي لكل مفهوم حقه وقيمته وان نتعلم كيف نستعمل كل مفهوم، كما يجب علينا أن نعيد النظر في مفاهيمنا " وأن نطرح مفاهيم وقيم جديدة قادرة على الاستجابة للواقع الإنساني وصولا لا إلى تأويله فحسب بل إلى توجيهه كذلك وجهة أكثر إنسانية "هذا بالنسبة لمفهومي الشهوة والقانون، أما المفهوم الموالي الذي يطرحه عبد الله شريط وهو مفهوم في غاية الأهمية وهو:

ثانيا ـ الشرف:

حيث " يعرض لعدة تصورات ويقارن بعضها بالأخر مفرقا بين تصورات تقليدية قديمة ما تزال مسيطرة رغم أن الزمن تجاوزها، وبين تصورات حديثة لا تؤمن بالقديم وتتجاهله رغم مالها من أهمية في الحفاظ على شخصية وهوية المجتمع ومقارنا كذلك بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية بشان هذا المفهوم".[1]

1- عبد الله شريط، معركة المفاهيم ، المرجع سابق، ص- 24.

حيث نجده يقول" الشرف عندنا هوأن نحيط بيوتنا بأسوار عالية ونحكم أقفال الأبواب على الحريم حتى لا يدنس شرفنا وهذا تصور أبائنا وأسلافنا، بحيث كان أبائنا يمنعون بناتهم من الذهاب إلى المدرسة حينما تتجاوز أعمارهم تسع سنوات من أجل أن لا يروهم الشبان المراهقين وهذا بسبب الحفاظ على شرفه"، وبالتالي يمكن القول بان هذا التصور حقيقة يحمل بعد إيجابي ولكنه يتضمن كذلك بعد سلبي، فيمكن أن تنجر عنه مشاكل، فالأب عندما يحرم ابنته من الدراسة فهو سيساهم بشكل آو بأخر في إخراج نشئ جاهل فتحرم حينها البلاد من أبناء صالحين ومتعلمين في وقت يكون فيه الأب قد توفي ولكنه ترك للوطن تركة ثقيلة وأطفال جاهلين في وطن بائس"، أفلا يعد هذا كارثة سببها الفهم الضيق للشرف؟

إذن فتصور القدامى للشرف يعني الحفاظ على عفة المرأة وحرمتها وليذهب مادون ذلك إلى الجحيم، أما إذا عدنا إلى تصور المجددين فهم ينضرون للشرف بمنظور أخر، فالشرف عندهم هو المحافظة على المجتمع الوطني ككل حتى و لو تطلب الأمر التضحية بالرؤية الأولى (التقليدية)، ومن هنا فهذا التضارب في المفاهيم هو الذي يبين حقيقة أن المعركة التي بيننا وبين أبائنا هي معركة مفاهيم وهي سبب مشاكلنا، حيث يستحضر عبد الله شريط في هذا السياق القضية الفلسطينية فيقول "إن اليهود لم يأخذوا فلسطين بالقوة لأن العرب أقوى منهم ولكنهم أخذوها لأنهم يعرفوننا كيف نفهم الشرف، ويعرفون أننا نضحي بوطن ولا نضحي بمفهوم خاطئ ونضحي بأجيال لكي نكسب الأوهام."

"فهم يعرفون نمط تفكيرنا وطبيعة مفاهيمنا، لذا تبقى معركة المفاهيم أخطر من معركة السلاح، فاليهود يعرفون حكمة انجليزية تقول:يجدر بك إذا كنت صاحب أملاك أن تعرف فلسفة مستأجرك أكثر من أن تعرف مداخيله و يجدر بك إذا كنت قائدا حربيا أن تعرف فلسفة عدوك و مفاهيمه في الحياة أكثر من أن تعرف عدد جنوده، ونحن نخالف أبائنا لأننا أدركنا بأن المعركة التي بيننا هي معركة مفاهيم."[1]

ثالثا ـ مفهوم الحرية و المسؤولية:

" يرى عبد الله شريط أنه مازلنا لا نفرق تماما بين الحرية والمسؤولية أو بالأحرى لا نتصور مدى ارتباط الحرية بالمسؤولية، نكثر من الحديث عن حرية المرأة ولكننا لا نتحدث إلا قليلا عن المسؤولية التي تنجر لها من هذه الحرية، ونثير في المرأة غريزة حب المطالب ولكننا لا نحدثها عن جانب العطاء والدفع مقابل هذه المطالب"، أي لا نثير فيها الشعور بالمسؤولية بنفس قدر الحرية التي نثيرها فيها كما يضيف قائلا

1- عبد الله شريط، معركة المفاهيم ، المرجع سابق، ص-28.

"اعترف بأن مشكلة الحرية والمسؤولية من أعوص القضايا الفلسفية في مادة الأخلاق وحتى في ميدان ما وراء الطبيعة وأن النقطة الايجابية التي يمكن أن نخرج بها من هذه المعركة هي أن الإنسان لا يمكن أن يكون ذا مسؤولية ما لم يكن يشعر بأنه حر فيما يأتيه ويدعه من أعمال والعكس صحيح أيضا أو هو أكثر وضوحا إذا كنت حرا في عمل من الأعمال، فإنك لا تستطيع أن تتنصل من مسؤولية أعمالك وتصرفاتك " فهذا دليل على مدى الارتباط الوثيق بين كل من مفهوم الحرية والمسؤولية.

" فالحرية هي التحرر من كل ما يعوق تحقيق إرادة الله وهي كذلك التحرر من كل ما يتحكم في الإنسان في الحياة، ولكن أي حرية؟ هي تلك الحرية المسؤولة المسيرة بالفطرة."[1]

أما إذا عدنا إلى الحرية عند المرأة سوف نلاحظ بأنها " تفهم الحرية من حقها أن تشتري ما يعجبها وتتزين وتضيع الوقت عند الجارة ولكنها لا تربط هذه الحرية بأنه من واجبها أن تعمل وتوفر الدخل الذي تشتري به ما تشاء، ولعل هذا النقص ليس موجود عند نسائنا فقط بل عند شبابنا وكذلك عند الكثير من المسؤولين منا في مختلف مجالات حياتنا الوطنية"، "فقد أصبح هذا الأمر يشكل مرض عام عندنا، الراحة الواسعة والنفقات الباهضة أما العمل والإنتاج فنتركه للآخرين"، ومن هنا نقول نحن نفهم الحرية بالصورة التي هي الآن مسؤولة عن مآسينا أي بصورة نفعل ما نحب غير مبالين بشيء أو بأحد وإن كانت هذه الحرية على حساب أشخاص آخرين، فلا نحمل ضمير الشعور بالمسؤولية ولا نحسن وضع كل مفهوم في مكانه الصحيح وبصريح العبارة نحن لا نعرف كيف نحدث التوازن في مفاهيمنا وتصوراتنا وهذا ما يوضحه عبد لله شريط.

رابعا ـ مفهوم الثقافة:

"يبين عبد لله شريط أن النظرة إلى هذا المفهوم تختلف،بحيثى أخذ مثالين على ذلك هما من عناصر الثقافة الكتاب والتلفزيون"، يهدف من خلال المواقف الموجهة إليهما إلى رؤية معينة فالكتاب هناك من لا يعطيه الاهتمام المطلوب أو حتى لا يعطيه اهتمام أصلا "مفضلا عليه التلفزيون."

وهذا دليل في نظره على عدم احترام الثقافة في حد ذاتها، إذ يبين ذلك قائلا " إن الكثير من الناس يبحثون عن مناصب من الدراجات العالية ولكنهم لا يحملون ثقافة تؤهلهم لذلك"

1– محـــمد مفتاح، مشكلة المفاهيم : النقد المعرفي والثقافة، المركز الثقافي للنشر، لبنان، ط1، 2000، ص– 182.

"فهمهم الوحيد هوتحقيق المكاسب المادية، أما المكاسب الفكرية فلا يولونها أي اهتمام وما أكثرهذه العادة في مجتمعاتنا العربية وخاصة المجتمع الجزائري مما دفع هذا التصور للثقافة و إلا تقييم لها إلى تفشي أزمات عديدة في مختلف الفضائات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية"، باتت تشكل خطرا علينا وتحول دون التحاقنا بركب الحضارة وللخروج من هذا الوضع ودخول وضع التقدم فلا بد من إعادة النظر في هذا المفهوم، ورد الاعتبار له كون الثقافة هي الدعامة الأساسية التي تتطلب المعالجة والتجديد في كل فترة زمنية،غير أن هذه المسألة لا تكون من طرف واحد بل هي مسؤولية الجميع[1]"، فلفعل الثقافي هو محصلة لحركية إبداعية شاملة تميز المجتمع برمته"[2] ، "فكلنا نعلم بالوهن الثقافي الذي أصابنا والذي هو صورة للوهن الحضاري الذي تعيشه الأمة العربية اليوم عامة والمجتمع الجزائري خاصة"، لذا يجدر بنا أن نفعل طاقاتنا و نسخرها في خدمة الثقافة ونصحح مفاهيمنا بجميع أشكالها.

من خلال ما سبق يؤكد عبد الله شريط أن كل مشاكلنا وعيوبنا مردها إلى مشكلة الثقافة بأوسع معانيها (المدارس، العادات والتقاليد، ومفاهيمنا للسياسة والاقتصاد والأخلاق ومشاكل التربية وتناقضات الأجيال وتنازع الأفكار)، لأننا لم نتحرر بعد من تحكم العادات الفكرية ومن التقليد ولذلك فان معيار الحقيقة والزيف في حياتنا الاجتماعية كلها تطرح السؤال الأخلاقي من خلال الواقع والعلم، علما أن أفاق التحول وارد لكنه يحتاج إلى منهج و رؤية فعالة تناقش طبيعة المشاكل الاجتماعية و الأخلاقية لمراعاة ظروف المجتمع وحاجاته وهذا لن يتأتى بالأمل والأماني، بل بالعمل الجاد ليصبح المشكل الأخلاقي سؤال للبحث وأساسه.

1- عبد الله شريط معركة المفاهيم ، المرجع سابق،ص- 45- 47-48.

2- الحسين الزاوي، الشك ومكامن الغل في فلسفة المشهد الجزائري،مخبر الأبعاد القيمية والتحولات السياسية والفكرية في الجزائر، الجزائر2005، ط 1، ص 36.

خاتمة

خـــاتـــمة

من خلال الدراسة يمكن القول والتسليم بوجود بوادر فكر فلسفي أخلاقي جزائري بغض النظر عن ما اعترى هذه الدراسات من نقائص واختلاف في المرجعية والمفاهيم أحيانا، وذلك راجع إلى اختلاف الأهداف التي كان يصبو إليها كل مفكر من هؤلاء المفكرين، كما نلاحظ من خلال الدراسة أن المفكرين الجزائرين ركزوا على الجانب النظري وهذا ما يتجلى بوضوح عند المفكر عبد الله شريط الذي تميز فكره بخاصية الواقعية التي يعتبرها المرجعية في المنهج فالفلسفة لا تكون في نظره أداة فعالة ومؤثرة إلا إذا ارتبطت بالواقع، وهذه الواقعية استلهمها شريط من ابن خلدون، حيث أنه لم يكن مشرعا أخلاقيا، بل كان يدعو الى تجسيد القيم الأخلاقية في سلوك الفرد الجزائري، وذلك مساهمة منه في تكوين مواطن جزائري صالح يؤمن بقيم أخلاقية يحفظ بها هويته ويواكب متطلبات العصر ويساهم في تحقيق نهضة وطنية شاملة.

إن تحليل عبد الله شريط لمسألة السؤال الأخلاقي يأخذ عدة تشعبات وأهمها، أن الأخلاق تقوم على تحقيق الانسجام بين المصلحة الخاصة والعامة، لقد قام بتقليب السؤال الأخلاقي على عدة أوجه (اجتماعي، سياسي، ديني وفلسفي)، وبالتالي تصبح الحرية على اختلافها ليست بذات معنى، لأن ما يحدث في العالم من أعمال كان باسم الحرية والديمقراطية تحت غطاء إفساد معنى أن تحترم الآخر، وعليه فان ما وصل إليه شريط في تحليل السؤال الأخلاقي في الفكر العربي الإسلامي عموما لا يختلف عن مثيله في المجتمعات الغربية كون المعايير الأخلاقية صارت توضع بحسب قبولها أو رفضها من العقل.

إن عبد الله شريط لم يتوان في طرح الخطأ الذي وقعنا فيه، والمتعلق أننا لا زلنا بعيدين عن طرح مشاكل مجتمعاتنا بجدية وهذه مشكلة الإنسان العربي في أنه اتخذ من غيره أن يكون قدوة، وخلقنا هوة بيننا وبين مجتمعاتنا ومشاكله بقوله" نرتكب خطأين: الأول أننا نكرر الخطأ الذي وقع فيه الفارابي وابن سينا في مبالغتهم في تقليدهم للباحثين اليونانيين حتى غفلوا عن مجتمعاتهم، وهذا ما نبه إليه ابن خلدون في غير موطن، ثم ان

ما أثار السؤال الأخلاقي لديه هو أن المجتمع العربي لم يدرس دراسته علمية منذ ابن خلدون إلى اليوم.

وبهذا المعنى فإننا نعتقد أن شريط يتصور منهجا مغايرا يتميز ب:

- ✓ فهو مرن، لأنه يتعامل مع العلم بأخلاق منفتحة تتيح له بناء نظام معرفي يكفل ويضمن تطوره.
- ✓ فهو صارم، لأنه يتعامل مع المؤسسة الدينية والعلمية والثقافية بجدية لبناء نظام معرفي حول الإنسان أولا والأشياء ثانيا.

وبهذا المعنى يصورنا عبد الله شريط على طريقة ابن خلدون الإنسان العربي الذي قبل بالسهولة واستقصى على نفسه اقتحام المشاكل الاجتماعية بواقع مغاير، وبأدوات مختلفة ونابغة من أصل السؤال الأخلاقي، لأن المشكلة تتمثل في النضج الفكري للواقع الاجتماعي الذي أرادناه لأنفسنا.

ومن خلال ما سبق فان شريط حاول دراسة المجتمع الجزائري ضمن سياق وإطار معالم الفكر الخلدوني الاجتماعي العملي، ومنه يمكن اعتباره صاحب نظرية واعية جديرة بأن تدرس وتنشر وتعرف للأجيال الصاعدة داخل الوطن وخارجه، هذه ومضة فقط من عشرات الشعل الفلسفية التي أوقدها مفكر الجيل في مجال الفلسفة، ومن ثم يصبح الحوار وثقافة التسامح وتسليم السلطة مع رواسب الماضي والتحلي بالحذر في التعامل مع العصر والتفاعل معه ومد الجسور بين الآنا والغير، وهي الشعارات الإنسانية والأخلاقية للفكر الحداثي والتنويري، وارتباط العلم بالأخلاق كل هذا من شأنه أن يشكل لوحة علمية رائعة.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا/المصـــادر:

- القرآن الكريم

1-القديس أوغسطين، الاعترافات، الخور الأسقف يوحنا الحلو،دار المشرق،بيروت، الطبعة 3، 2013.

2-القديس أوغسطين، خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، ترجمة يوحنا الخوري، دار المشرق بيروت،2013.

3- لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو، دار منشورات الاختلاف، عمان ط3،2004.

4- شريط عبدا الله، معركة المفاهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

5- شريط عبد الله، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1981.

6- شريط عبد الله، الفكر الأخلاقي عند عبد الرحمن ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط21981.

7- شريط عبد الله، من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1990.

ثانيا/المـراجـع:

<u>باللغة العربية</u>

8- الربيع ميمون،نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية و المطلقية، شركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980.

9- أحمد أمين، كتاب الأخلاق، ط2، دار الكتاب المصرية، مصر، 1921.

10-الحسين الزاوي، الشك ومكامن الغل في فلسفة المشهد الجزائري،مخبر الأبعاد القيمية والتحولات السياسية والفكرية في الجزائر، الجزائر، ط 1،2005.

11-الشيخ كامل محمد عويضة، اوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، دار الكتب العلمية بيروت، ط11993.

12-الشيخ كمال محمد، الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، دار الكتاب للنشر بيروت، ط1 1993.

13-بيتربيرغر وتوماس لوكمان، البنية الاجتماعية للواقع، ترجمة أبو بكر احمد، دار الأهلية للنشر والتوزيع عمان الأردن، 2000.

14-جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، دار العربية للعلوم لبنان، 2006.

15-طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربيالمغرب،ط1، 2001.

16-عثمان سعيدي، الجزائر في التاريخ، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2003.

17-عمار طالبي، مدخل إلى عالم الفلسفة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.

18- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

19-ماهر عبد القادر محمود، دراسات في المذاهب الأخلاقية، أورينتال، الإسكندرية، 2009.

20- محمد شريف ساحلي، الأمير عبد القادر فارس الإيمان، ترجمة محمد يحياتن، منشورات anep- 2008.

21-محمد مفتاح، مشكلة المفاهيم ، النقد المعرفي والثقافة، المركز الثقافي للنشر، لبنان، ط1 2000.

22- محمد مهران رشوان، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، دار قباء، القاهرة،1998.

23مصطفى عبده، فلسفة الأخلاق، مكتبة مدبولي القاهرة، ط2، 1999.

24- معيرش موسى، الفكر الإسلامي في المغرب العربي، دراسات وأبحاث في العقل الجزائري دار الكتاب الحديث، ط1.

25-وليام ليلى، مقدمة في علم الأخلاق، علي عبد المعطي محمد، دار المعارف، الإسكندرية 2000

باللغة الفرنسية

26- alain: elements de philosophie- collection idees- edition gallimard- france 1941.

-27critique de la raison pure- trad- j.barni- puf- paris- 1968.:- kant

ثالثا/ الموسوعات والمعاجم:

28- أحمد زاكي بدوي، معجم مصطلح العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، 1986.

29- اندرية لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة أحمد خليل، مج1، منشورات عويداتبيروت ط2، 2001

30- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

31- جورج تربيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للنشر والتوزيع،ط1، 1987.

32- روزنتال ويودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، مراجعة صادق جلال العظم وجورج طرابيش دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط5، 1985.

رابعا/ المجلات والدوريات:

33- بوصفصاف، عبد الكريم،الكلمة الافتتاحية للندوة، أعمال الدكتور عبد الله شريط الفكرية والفلسفية في ميزان الباحثين الجامعيين،الندوة التكريمية العلمية في مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة،2004.

34- سعيدي حمودة، معالم الفلسفة الخلدونية الاجتماعية عند عبد الله شريط، الندوة التكريمية العلمية.

35- مقالة للدكتور مجاود محمد، المسألة الإيديولوجية في فكر عبد الله شريط، من أعمال الدكتور عبد الله شريط الفكرية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة، مطبعة عين الباي 2007.

فهرس
الموضوعات

فهرس الموضوعات

الإهـــــــــــــداء I
شـــكـــر و عرفان.....II
مقدمـــة .....ب
الفصل الأول: الأخلاق بحث في المفهوم والماهية
المبحث الأول: ماهية الأخلاق 7
المبحث الثاني:الأخلاق بين النظري والتطبيق..... 13
المبحث الثالث: القيم الأخلاقية في الفكر الجزائري..... 17
الفصل الثاني: القيم الأخلاقية في فكر عبد الله شريط
المبحث الأول: عبد الله شريط وأعماله الفلسفية: 33
المبحث الثاني: القيم العملية والنظرية في فكر عبد الله شريط: 40
المبحث الثالث: معركة المفاهيم (شريط عبد الله)..... 47
خـــاتـــمة 54
قائمة المصادر والمراجع..... 57
فهرس الموضوعات 61
ملخص الدراسة 62

ملخص الدراسة

إن دراسة القيمة في عصرنا ذات أهمية كبيرة لم تكن في الفلسفات القديمة، لأن تقدم العلم و أزماته و الأثار السيئة الناتجة التي تسببت فيه تقنياته و التيارات الفكرية التي يدعو كل منها لمنهج خاص في الحياة.

و عليه وقع الفلاسفة بالقيم دون إنقطاع لأن الفلسفة و اهتماماتها قيمية، فهي ليست كإهتمامات العلم الذي يدرس الواقع و لا يحاول تجاوزه.

يعد عبد الله شريط من المفكرين الجزائريين المهتمين بقضايا التنمية من خلال ربطها بالسؤال الأخلاقي، و لقد حمل مشروعا فكريا فلسفيا أخلاقيا حاول من خلاله تعليل العوامل التاريخية و الحضارية التي عثرت نهضتنا الفكرية و الثقافية و الإقتصادية و الإجتماعية عندما واجه المجتمع الجزائري تحديات جمة استهدفت حضارته و تراثه و ثرواته و حريته، و في ورقتنا البحثية سنحاول تقديم قراءة تحليلية للمواقف الفكرية التي تبناها عبد الله شريط عبر مساره الفلسفي، و وضعه للأليات المنهجية الواقعية و تحديد معوقات التنمية في المجتمع الجزائري لمواجهة أزمة التخلف و تحطيم فكرة التبعية التي شكلت هاجسا أمام المجتمعات النامية، و إبراز الهوة الشاسعة بين ما هو نظري و ما هو عملي على مستوى تناول بعض المشكلات المؤثرة في واقعنا الإجتماعي، فكيف يمكن حسب عبد الله شريط إحداث التغييرات الضرورية و الدخول في معركة النهضة و النظر إلى الإنسان بإعتباره أحد العناصر المكونة للحضارة.

Abstract :

Abdullah Chreit is one of Algerian intellectuals interested in develipment issues, which carried an intellectual and philosophical project in which he tried to explain the historical and cultural factors that found our intellectual, cultural, economic and social renaissance when Algerian society faced great challenges targeting its civilization, heritage, wealth and freedom.

In our research paper, we will try to provide an analytical reading of the intellectual positions adopted by Abdullah Chreit through his philosophical path and his development of realistic methodological mecanisms, and we will identify the development obstacles in Algerian society to face the underdevelopment crisis, and to destroy the idea of dependency that has been an obsession in developing sosieties, then highlights the vast gab between that is theoretical and what is practical in dealing with some problems affecting our social reality, how, according to the thinker Abdullah Chreit, by bringing the necessary changes and enter into the battle of renaissance Abdullah Chreit and look at the human being as one of the constituent elements of civilization.